رواية

محمد أبو زيد

عنكبوت في القلب

القرصان
t.me/qurssan

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

المشرف على النشر
د. سهير المصادفة

الإخراج الفني
صلاح محمد عبد الحميد

التصحيح اللغوى
إسلام راغب

متابعة
علاء محمد عادل

عنكبوت فى القلب
(رواية)
محمد أبو زيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C. : 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة إبداعات قصصية

رئيس التحرير
سيد الوكيل

مدير التحرير
مصطفى رزق

سكرتير التحرير
سلوى فياض

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول.

حقوق الطبع والنشر محفوظة للهيئة المصرية العامة للكتاب
يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة المصرية العامة للكتاب أو بالإشارة إلى المصدر

عنكبوت فى القلب

t.me/qurssan

I

في البدء لم يكن هناك شيء. فقط، الشمس والقمر والليل والنهار والفصول والرياح والشعر والكتاب وميرفت عبد العزيز، لكن ميرفت لم تكن تحب الآيس كريم ولا الزومبي ولا الشعر، ولا تقرأه حتى من باب المجاملة.
في النهاية لم يكن هناك شيء. فقط الحشود، والطريق والسيارة والبنايات وزجاجات المولوتوف والوجوه الشوهاء والهاتف وتأبط شراً وميرفت، لكن ميرفت باعت لسانها للقطة، ولم تعد ترغب في الكلام.
بين البداية والنهاية حكاية ورواية. رواية تنتهي في السماء، وحكاية تبدأ من الأرض.
كانت الأيام الستة التي خلق الله فيها العالم قد انتهت، والحياة بكرٌ نظيفة. نظيفة بلا ملصقات في الشوارع ولا عبوات بيبسي فارغة ملقاة على الأرصفة ولا عوادم سيارات ولا إشارات مرور، ولا زحام في المترو، ولا رنة رسائل واتس آب المزعجة، فقط الجبال والبيد والغابات والحيوانات، من كل زوجين اثنين.
حدث ذلك قبل نوح بسنين طوال، وبعد الانفجار الكوني الكبير بسنين مثلها: ذكر النحل يطارد الملكة، لم يتعظ من مصير سابقيه، استمع إلى وسوسة الشيطان وخيالاته الجنسية، انتقل خلفها من زهرة إلى أخرى، ازاح الذكور التي تتسابق وتتصارع معه: تارة بالشتم وأخرى بالتهديد ومرة بالضرب. لم يصدق عينيه عندما

t.me/qurssan

رآها تتنقل من ذكر إلى آخر كسراً للملل.
يعي أن وصوله يعني موته، هكذا يقول كتاب الطبيعة، لكنه لم يهتم، أكل من الشجرة رغم أنه لا يحب التفاح، انطلق خلفها على «الطريق الدائري»، دون أن يأبه بأكمنة الشرطة المنتشرة على جانبي الطريق، ولا بالبلطجية الذين يتصيدون المارة أسفل الكباري وفوقها.
نظر إلى السماء التي أرعدت وأبرقت، خائفاً من تحقق النبوءة التي ذكرتها الكتب، ونقشها النحل بعسله على جدران المعابد والكهوف. توقف قبل أن يصل، وقلبه يقفز خارج جسده من الرعب.
تقول الأسطورة إن الطبيعة غضبت عليه، وأن الله مسخه إنساناً، يتعذب قلبه كلما تفتحت زهرة على غصن، أو رأى بحراً محبوساً في صورة، أو لمح فتاة تشبه ميرفت عبد العزيز تمر من أمام أحد مقاهي شارع شامبليون.
تكمل الأسطورة أنه سيعيش بجرح بلا علاج: كلما سمع رنين الهاتف يشعر بنغزة في قلبه تستمر حتى منتصف الليل، وسيعجز الطب الحديث والشعبي والبديل عن وضع وصفة ناجعة.
تزيد الأسطورة أنه سيظل هكذا، تائهاً، يدور في الفراغ بسيارته، مثل مروحة سقف مجنونة. ومن هنا قررت أن أبدأ هذه الرواية.

II

كيف يمكن للمرء أن يصبح صعلوكاً؟

أنت لم تفهمني. لا أقصد صعلوكاً فقط، فالصعاليك كثر، تجدهم على كل ناصية وفي كل زاوية، أمام مسجد الحسين ومحطات المترو وفي الشوارع الخلفية للمدن الصاخبة، سؤالي هو كيف تصبح صعلوكاً متميزاً، يتحدث عنك الروائيون وتذكرك كتب تاريخ الأدب، ويخصص لك الأصفهاني فصلاً في كتابه الأغاني؟

الإجابة: كن شاعراً. لكن هذا وحده لا يكفي، بل يجب أن تمتاز بصفة أخرى، مثل أن تكون عدّاء في صحراء ممتدة، لا يوجد فيها خط نهاية للسباق، النهاية الوحيدة هي أن تلمس سطح السماء، أو تصل البحر، ما لم تمت قبل بلوغ شاطئه.

ويمكن للصعلوك أن يكون مغرياً دراميا أكثر بأن يكون لصاً، لا يغير على معارض الكتب لسرقة الروايات المترجمة ومؤلفات لينين وماركس بحجة أن «القراءة للجميع»، ولا على المطاعم ويخرج دون أن يحاسب لأن هذا طعام الله وقد ذهب لخلق الله، بل يفعل ذلك قاصداً، فيتهجم على البيوت والعائلات وبني صاهلة من قبيلة فهم وبني نفاثة من قبيلة كنانة.

لكي تكون صعلوكاً يجب ألا تكون وحيد والديك، لأن ذلك سيجبرهم على العناية بك، وتزويجك في سن مبكرة من ابنة خالتك أو ابنة عمتك أو ابنة الجيران كي ترى أمك أطفالك قبل

t.me/qurssan

أن تموت، أما إذا كنت أخاً لخمسة آخرين (ريش بلغب، وريش نسر، وكعب جدر، ولا بواكي له، وعمرو الذي مات صغيراً ـ ربما بسبب غرابة اسمه)، فستكون لعنة تتحرك على الأرض. وقد جمع «ثابت» كل ذلك.

ثابت بن جابر الفهمي القيسي (توفي نحو ٥٣٠ م)، اسم عادي، يمكن لأي بائع بطاطا في الشارع أن يحمله، لكن لكي يصبح صعلوكاً كما كان يحلم طفلاً، وجب عليه أن يحمل لقباً مميزاً. «تأبط شراً» مثلاً.

لكن لماذا «تأبط شراً» على سبيل التحديد؟ يقول الرواة إنه ذات مرة رأى كبشين كبيرين في الصحراء فحمل أحدهما تحت إبطه وعاد إلى أمه، وظل الكبش يبول عليه طول طريقه، فلما قرب من الحي الذي يسكنه، ثقل عليه فرمى به أرضاً فإذا هو «غول». فقال له قومه: ماذا تأبطت يا ثابت؟ قال: غول، قالوا: لقد تأبطت شراً. فلقب بذلك.

هذا رواية، رواية أخرى تقول إن أمه أميمة الفهمية قالت له ذات مرة مؤنبة، وهي تندب حظها على جلوسه جوارها بلا عمل: كل إخوتك يأتونني بشيء، إلا أنت.

وحركت شفتيها يميناً ويساراً ومصمصتهما كناية عن الحسرة وخيبة الأمل، فقال لها وقد شعر بجرح كرامته: سآتيك الليلة بشيء.

ومضى فصاد أفاع كثيرة من أكبر ما قدر عليه، ثم عاد بهن في جراب متأبطاً له، فألقاه بين يديها، ففتحته فتساعين في بيتها

فوثبت هاربة. فقال لها نساء الحي: ما الذي أتاك به ثابت يا أم ثابت؟ فقالت: أتاني بأفاع في جراب، فقلن: وكيف حملها؟ قالت: تأبطها، قلن: لقد تأبط شراً، ومن هنا حمل هذا اللقب.

هذه الرواية مضحكة، ثمة رواية ثالثة يمكن لأي مؤرخ أفاك أن يؤلفها: وهي أنه لقب بـ"تأبط شراً" لأنه كان يسمي سيفه "الشر"، واشتهر به، وكلما خرج للغزو وضعه تحت إبطه، وكان أعداؤه يخشونه، فإذا رأوه في الحرب، قالوا لبعضهم: لقد تأبط شرا، يقصدون سيفه، ومن هنا جاء اللقب.

سمعة تأبط شراً جابت الصحراء العربية، قال عمرو بن أبي عمرو الشيباني: نزلت على حي يدعى بسة، فسألتهم عن خبر تأبط شراً فقال لي بعضهم: "وما سؤالك عنه، أتريد أن تكون لصاً؟ " قلت: لا، ولكن أريد أن أعرف أخبار هؤلاء العدائين، فأتحدث بها، فقالوا: نحدثك بخبره: "إن تأبط شراً كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين وكان إذا جاع لم تقم له قائمة فكان ينظر إلى الظباء فينتقي الأسمن، ثم يجري خلفه فلا يتركه حتى يمسكه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله". من الجيد أنه كان يشويه قبل أن يأكله.

حتى في مقتله كانت حكاية. يقول رواة التاريخ: خرج نفر من الصعاليك ليلاً عليهم عامر بن الأخنس الفهمي وفيهم تأبط شراً لغزو بني نفاثة. فلما وصلوا انتظروا أن ينام الحي، وبينما هم كذلك فطن أحد رعاة بني نفاثة لهم، فأخبر قومه، فانطلقوا إليهم، فلما أحس بهم تأبط شرا قال لقومه: "أنا والله أسمع

t.me/qurssan

حطيط وتر قوس، إني لأسمعه يا قوم النجاء". فلم يقبلوا رأيه لسوء حظهم، فتركهم.
ولأنهم لم يصدقوه قُتلوا ولم ينج منهم أحد، وقتل عامر بن الأخنس الفهمي، فحلف تأبط شرا أن يثأر له رغم أنه لم يأخذ برأيه، فخرج في نفر من قومه، فعرض لهم بيت لبعض بني هذيل بين جبلين، فقتلوا شيخاً وعجوزاً وحازوا جاريتين وإبلاً وهرب غلام لهم، فأصر تأبط شراً أن يتبع أثر الغلام، فلما رآه الغلام ولم يكن معه إلا سهم أمهله حتى إذا دنا منه قفز قفزة فوثب على الصخرة، وأرسل السهم. فلم يسمع تأبط إلا الصوت، فرفع رأسه فاخترق السهم قلبه، فقال للغلام: لا بأس. فقال الغلام: "لا بأس والله لقد وضعته حيث تكره".
فأقبل نحوه تأبط شراً فغشيه بالسيف، حتى قتله، ثم نزل إلى أصحابه يجر رجله، فلما رأوه وثبوا ولم يدروا ما أصابه، فقالوا: مالك؟ فلم ينطق ومات في أيديهم، فانطلقوا وتركوه.
أنذال طبعاً.
هذه رواية التاريخ، تجدها في كل كتاب، وحتى على ويكيبيديا إذا كنت كسولاُ، لكن الرواية التي أعرفها مختلفة، أعرف أنه تركهم وانطلق في الرمال، فظنوه ثعباناً. حاولوا ضربه بالسيوف، أو وطئه بالخيول لكنهم لم يتمكنوا منه. سعى في الرمال طويلاً، حتى غاب عنهم، واقترب من البحر، لما دنا منه صار تمساحاً، ثم ما لبث أن غدا لقلقاً، لكنه لما أراد أن يصدح بقصيدة جديدة لم يخرج من فمه سوى همهات غير مفهومة، فقرر أن يصير ببغاء، يكرر حكايات الرواة، ويسأل كل من يلقاه عن صوته الذي ضاع منه، ويُروى إنه عاش قرابة الألف وخمسمائة سنة.

III

في الليلة السابقة لما عرف بمذبحة القلعة (١ مارس ١٨١١)، كان المملوك الوحيد الذي سيهرب يتقلب في فراشه محاولاً النوم، ثم التفت إلى زوجته قائلاً:

ـ غداً سيقتلنا محمد علي باشا يا امرأة

ردت عليه وهي تقاوم النوم:

ـ لا تقلق يا مملوك

لطمها بعنف، وهو يصرخ:

ـ أنا لست مملوكاً يا امرأة، أنا سيد هذي البلاد.

لم يلطم الرجل زوجته لأنها نادته بهذا اللقب، فهو كذلك بالفعل، ولا خشية أن يحمل نجله هذه الصفة، فهو لم ينجب بعد، ولكن لأنه كان مشغولاً بالعشاء الأخير غداً وأراد أن يفرّغ قلقه في أي شيء. بقية الحكاية لا أعرفها، لكن أدباء الخيال العلمي لو كانوا مكاني لقالوا إن هذا فارس من زمن آخر، وسيهرب من ثغرة زمنية، وأعتقد أن شيئاً كهذا حدث في فيلم «رسالة إلى الوالي»، وربما في سلسلة أفلام «المبيد» و»العودة إلى المستقبل» و»صانع الحلقة» بتنويعات أخرى.

رغم هذا يصر الرجل المملوك على حضور العشاء، وإمعاناً في الدراما سيطلب منهم إعداد الملوخية بالطشة التي يحبها، ثم يطلق مزحة لن ينتبه لها أحد عن نوع السم الذي يفضل تناوله.

t.me/qurssan

لكن يبدو أن لون الملوخية كان مائلاً للاصفرار، أشبه بمخاط تنين حديث الولادة، حتى أنه تقيأ حين رآه، ولم يستطع إكمال وجبته وخرج دون مراعاة الذوق العام، وحين استوقفه الحارس على باب القلعة أخبره أنه ذاهب إلى الخلاء، ولما لم يفهم أوضح إنه ذاهب إلى التواليت، فهز الحارس رأسه وأشار إلى أسفل داعياً له بالعافية.

المكان الذي أشار إليه إصبع الحارس، والمكان الذي ذهب إليه الفارس ليقضي حاجته سيصبح اسمه فيما بعد «مملكة الزبالين»، وهو الذي كتب عنه هاني عبد المريد ـ بعد حوالي قرنين ـ روايته «كيرياليسون».

غير أن الفارس الذي ذهب لم يظهر مرة أخرى، لم يعد إلى العشاء، ولم يزر كتب التاريخ، ولم يذكره عبد المريد في روايته.

IV

أصعب ما في الحكايات المسلية ـ كهذه ـ هو الجزء الأول، الذي يشعر فيه الراوي العليم أنه سيصعب تصديقه، ومشكلتي مع هذا الجزء أنني شخصياً لا أصدقه.

حفار قبور اسمه سامي، أمر صعب التصديق بالنسبة لي، كان حرياً بي أن أختار له اسماً أكثر إرعاباً. حتى سامي نفسه ظل لسنوات يتناقش مع والديه حول مغزى اسمه، ومع والده ـ على انفراد ـ حول المهنة التي ورثها منه.

سامي يحب الفراشات، ولم يكن اسمه مناسباً لهذا أيضاً. يربيها، ثم يجففها ويبيعها لزوار القبور، مقابل جنيه واحد أو رغيف خبز أو "أقراص الموتى"، لا أعرف ما اسمها الحقيقي، لكني أفضل هذا المصطلح.

والده لم يكن طموحاً ولا من رواد الأعمال، فتوقف عند مهنة "تغسيل الموتى"، لكن سامي قرر اقتحام المحظور وتعلم دفن الموتى. معلمه الأول اسمه "إعقوب"، هكذا كانوا ينادونه. لكن القارئ الفطن ـ مثلك تماماً ـ سيدرك حتما أن اسمه يعقوب، وهو اسم ملائم لحفار قبور قديم، خاصة أن الاسم غير متداول، وربما لا يحمله في المنطقة التي يسكنها سامي إلا هذا الرجل، فصار اسمه مرادفاً لوظيفته، حتى أن الأمهات صرن يُخفن أطفالهن هكذا: "لو لم تكف عن المشاغبة سأحضر لك إعقوب".

t.me/qurssan

يقصدن أنهن سيحضرن له حفار القبور. ولا عجب في ذلك، فهكذا تولد الأساطير والأمثال.
يعقوب نفسه كان غريب الأطوار، فالأجداد يروون أنه كان شيخاً طاعناً في السن أثناء طفولتهم، كما يروي الآباء في جلسات المساء أمام مناقد النار في ليالي الشتاء الطويلة، أنه كان في الأصل لصاً يسرق الأحذية من المساجد، لكنه كان يسرق "فردة الحذاء اليمنى" فقط، ويترك اليسرى لصاحبها، لم يكن أحد يعرف لماذا يفعل ذلك، فلا هو سيستفيد شيئاً من سرقة فردة واحدة، ولا صاحب الحذاء سيستفيد شيئاً من الفردة الباقية. بعض المحبين له ـ وهم قلائل على أية حال ـ قالوا إنه يضعها أمام قبور الموتى الذين فقدوا إحدى ساقيهم في الحرب، فربما أرادوا التمشية ليلاً أو السير حتى البحر، وهو الأمر الذي لم يعتبره سامي مبرراً مقنعاً، خاصة أنه لا يوجد بحر في منطقة البساتين، لذا قرر أن يتعامل معه بشكل براجماتي بحت مثل القوى السياسية الليبرالية، وأن يشرب منه المهنة. كان يفعل هذا في الوقت الذي يتدرب فيه من جهة أخرى على تجفيف الفراشات، والتي يعتبرها موتاً آخر. إذن فمهنته كانت "مغسّلاً للموتى"، وقاتلاً ومجففاً للفراشات. لديه حياتان إذن، لا تتقاطعان، يفصل بينهما 3 ساعات نوم: عمل لمدة 9 ساعات، ثم 3 ساعات نوم، ثم عمل، وهكذا، لدرجة أن حياتيه لا تعرفان شيئاً عن بعضهما البعض، ولم تتقابلان ولا مرة في السوق أو على مقهى "عم صالح".
يعقوب عندما سمع حكايته، قال له هازئاً:

ـ مهنتنا لا يدخلها إلا ذوي القلوب الميتة، وأنت طفل صغير.
لكن سامي كان يجهز الكلام على طرف لسانه، ورد قبل أن تنتهي جملة يعقوب:
ـ من قال ذلك، أنا بلا قلب أصلاً.
ثم أخرج مطواته وشق صدره، كاشفاً عن الأمعاء الرفيعة والغليظة، ثم جذب يعقوب من أذنه ليرى جيداً:
ـ انظر، لا شيء هنا.
لم يبدُ الأمر مقنعاً بالنسبة ليعقوب، ظن أن الولد يمزح، أو قد يكون ساحراً على أقصى تقدير، لذا تمخط، ومسح أنفه في منديل قماش أعاد وضعه في جيب جلبابه، ثم رد بحدة:
ـ اسمع، هذا الكلام عند أم الترتر.
وأضاف بفصحى سليمة:
ـ عندي شرط لتعلم المهنة، أن تبيت ليلة داخل مقبرة مع أحد الموتى الجدد.
لم يكن الأمر صعباً بالنسبة لسامي، فأسرته تسكن أحد المقابر بالفعل في حي البساتين، ما سيزيد فقط، هو أن يمضي الليلة داخل المدفن نفسه. شرد مفكراً كيف سيقضي ساعات الليل، عندما فاجأته ابتسامة ساخرة على فم يعقوب، وسؤال أكثر سخرية:
ـ ها.. خفت؟
لكن الرد كان جاهزاً أيضاً على طرف لسان سامي:
ـ ليلة واحدة فقط؟

t.me/qurssan

بعدها بساعات، كان سامي يجهز العدة، "عدة الشغل" كما قال لأمه التي سألته: "ماذا تفعل؟"، عندما رأته منهمكاً في وضع بعض الحاجيات في حقيبة.

علبة سلامون، وعبوة كوكاكولا من الحجم العائلي، وكيس تمر كبير، وشريط أغاني لهاني شاكر، و"ووكمان" صغير وقلامة أظفار، وألبوم صوره، وعباءة يقال إنها تعود إلى جده الأكبر الخديو كما كانوا يسمونه، أو "المملوك" كما حكت عنه ذات مرة "ناشونال جيوغرافيك".

في الواقع، كان هذا هو آخر سؤال سمعه من أمه.

في الحقيقة، كانت هذه هي آخر مرة تراه فيها.

الفصل الأول

فتى

t.me/qurssan

الفتاة التي هبطت من السقف

كل الحكايات تتشابه، البدايات والنهايات ونقاط الإضاءة، لكن ميرفت عبد العزيز حكاية مختلفة، ذلك أنها لا تبدأ من ميرفت، إنما من غرفة ضيقة ممتلئة بالكتب والجرائد القديمة والطائرات الورقية واللوحات المقلدة المعلقة على الحائط وأسطوانات الأفلام المدمجة.

في الغرفة سرير واحد، وكومبيوتر واحد، ومج أحمر واحد مكتوب عليه "نسكافيه"، وشخص واحد يتمدد على السرير، وعيناه تتأملان سحابة من الرطوبة ناشعة بوضوح في السقف ترسم عنكبوتاً وفتاة بجناحين، هذا الشخص يحلم بميرفت، وحتى لا أكون كاذباً، هو لا يعرف أحداً أصلاً بهذا الاسم، لكن الاسم نبت في ذهنه منذ كان صغيراً، عندما فتح الصفحة الأخيرة من كراسة الحساب، في صفه الرابع الابتدائي، فوجد مكتوباً فيها "ميرفت عبد العزيز".

لم يكن هذا الاسم قد مر به من قبل، لم تكن إحدى زميلاته في الفصل تحمله، ولا في شارعه، ولا إحدى خالاته، ولا بنات عماته، ولا حتى طفلة من هواة المراسلة في مجلة ميكي جيب التي يتابعها بشكل مستمر. لم يكن ـ حتى ذلك الوقت ـ يعرف أحداً باسم ميرفت إلا ميرفت أمين، التي يخطئ دائماً ويسميها

t.me/qurssan

"سهير حسين"، دون مبرر.

لم يمر الأمر مرور الكرام، فعمه مدرس العلوم العصبي، والمعروف باسم "صاروخ الكيمياء" على حوائط شوارع كفر الشيخ، عندما رأى الاسم في الكراسة، انهال عليه بالعصا:

ـ من هذه يا ولد؟، من هذه يا ولد؟

لكنه لم يجب. لم يجب ليس لأنه خائف، وإنما لأنه لا يعرف، آه والله، لا يعرف.

تأمل الخط الذي كتب به الاسم. كان منمقاً، رقيقاً، نسوياً، أقصد "بناتي"، لونه بنفسجي، قطع الورقة الأخيرة من الكراسة واحتفظ بها كأنها سره الأعظم، وكلما رأى فتاة ـ فيما بعد ـ اسمها ميرفت حرص أن يرى خطها، فربما تكون هي.

مرت ميرفتان في حياته حتى الآن، الأولى اسمها "دينا"، والثانية اسمها "دنيا". ومنهما لا تبدأ الحكاية.

شكر مستحق للمؤلف

اكتشف إصابته بالحب بمحض الصدفة.
كان ذلك صباح يوم سبت مشمس.
التاسعة بتوقيت القاهرة.
مطلع شهر أبريل.
فتح البلكونة، نشر البطانية، رمق الشمس مخبئاً عينيه من أشعتها النافذة بوضع كفه فوق جبهته، ألقى بطرف بصره إلى الركن، حيث الكرتونة الملقاة هناك: كان قلبه ينبض وقد اختفى القمح من حوله.
في البداية لم يصدق، اقترب أكثر، أزاح خيوط بيت عنكبوت، جرب أن يمد يده ليلمسه في حذر، لم يجد أثراً للتفحم، الأماكن السوداء أصبحت بلون ورائحة حقل من البرسيم، ونبتت الأجزاء المهشمة من جديد.
أسرع إلى المطبخ، أحضر المغرفة التي يستخدمها في غرف شوربة الدجاج، حمل بها قلبه، رفعه أمام عينيه في الشمس، ثم قربه من أذنه كأنه صَدَفة، سمعه يدق، يدق، يدق.
فكر أن عليه أن يتصل بـ "الطبيبة المريضة" ليشكرها.
كان قد نسي ملامح وجهها تماماً، هل ترتدي حجاباً مزركشاً ونظارة أم لا؟، هل تحمل عكازاً أم أن العكاز يحملها؟ وكم حبة مكرونة تضعها في الملعقة قبل أن تأكل؟

t.me/qurssan

أربع سنوات بالتمام والكمال، مرت على آخر مرة التقاها، في محل "كشري أبو طارق" بشارع شامبليون بوسط القاهرة، يومها حكى لها أنه يشم رائحة حريق داخل صدره، أن دخاناً ولهباً متقطعاً يخرج من فمه في بعض الأحيان، أن الأطفال يظنونه تنيناً ويهرولون بعيداً عن طريقه في الشارع.
بدت له مهتمة جداً بتتبع باقي حبات المكرونة الباقية في طبقها بالملعقة، لكنها طلبت منه أن يفسّر لها أكثر، فأضاف أنه منذ فترة ـ ليس بإمكانه أن يحددها ـ لم يعد يشعر بفكه الأيسر، أنه يرى بطرف عينه اليسرى كل شيء رمادياً محروقاً، أنه يجد في كل فانلاته الداخلية، عندما يخلعها، دائرة صغيرة محترقة على اليسار. حاول أن يتذكر شيئاً آخر ولم يفلح، فآثر الصمت.
انتهت من طبق الكشري، وبدأت ملعقتها البلاستيكية الصغيرة تغوص في طبق الأرز باللبن، لكن الملعقة الثانية توقفت تماماً في المسافة ما بين فمها والطبق، وقالت:
ـ إنه الحب، أقصد عدم الحب، "لا وجود لرقية تنفع مع هذا الداء".
شعر أن جزءاً من هذه الجملة قرأه من قبل في راوية "ابنة الحظ"، لإيزابيل الليندي، وأن المؤلف وضعها في مقدمة ديوانه الأول، فظن أن عقل المؤلف الباطن هو الذي استدعاها وأن "الطبيبة المريضة" لم تقل شيئاً، لكنها تابعت:
ـ سأقول لك على الحل، عندما تعود إلى المنزل، اغتسل جيداً، حتى تسقط طبقة خفيفة صدئة عن جلدك، أخرج قلبك، ثم ضعه

في كرتونة صغيرة، واتركه في البلكونة في رعاية الشمس. ضع له القمح والذرة والماء كل يوم، حتى ينمو مجدداً، بعد فترة ستصاب بالحب، ويعود قلبك مجدداً.

الشك الذي كان ينظر به إليها صدته بجملة واحدة:

- صدقني، هذه طريقة مجربة.

تحت الدش، أدرك أن قلبه كاد أن ينتهي، كان يسمع الـ"طششششش"، الناجمة عن اصطدام المياه بالفحم المشتعل أثناء نزول المياه على جسده، ينظر إلى أسفل، فيجد الرماد قد تكوم أسفل قدميه.

مد يده إلى الداخل، إلى يسار جسده، لا هذه الأمعاء، لا، لا أريد البنكرياس، لقد قالت القلب. عندما ظفرت به يده، نظر إليه بأسى، كان جزء كبير منه قد تفحم تماماً، وتساقط الرماد منه، والجزء الآخر أصبح مثل جمرة منطفئة، ومنه يبين شريان ينبض بوهن شديد، مثل كلب شوارع أصيب بطلق ناري وينازع الموت.

حمله بيديه، خرج عارياً إلى البلكونة، لم يأبه بالنظرات المستنكرة لجارته التي تطل من الشقة المقابلة. وضعه بحرص شديد في كرتونة قديمة - كانت أمه قد أرسلت فيها إليه بعض الثوم - كأنه يودعه مثواه الأخير.

بحث في المطبخ عن بعض القمح، ثم نثرهم حول قلبه، وفي برطمان مربى فارغ، وضع بعض المياه، وقف قليلاً يتأمله في أسى ثم عاد للداخل مرة أخرى، وهو يشعر أنه أصبح وحيداً بعد أن دفن صديق عمره.

t.me/qurssan

لأيام طويلة، ظل يفتح البلكونة كل صباح، ينظر إلى القلب، فلا يجد شيئاً قد تغير، لم يختف القمح، ولم تنقص المياه. جرّب شيئاً آخر، فربما لا يحب القمح، وضع علبة سلامون، وعبوة كوكاكولا من الحجم العائلي، وكيس تمر كبير، وشريط أغانٍ لهاني شاكر، و"ووكمان" صغير وقلامة أظفار، لكن شيئاً لم يتغير.

مرت الأيام والأسابيع والشهور، جاءت الريح والأمطار، هبت العواصف، ثارت الزلازل وانفجرت البراكين، قامت الحروب وانقسمت دول، هبت الثورات والثورات المضادة، انتهت جميع حلقات المسلسلات التركية والهندية وظهرت الأفلام الـ3D، لكن شيئاً لم يتغير.

أحياناً كان يدخل البلكونة، يتأمله مطرقاً، ثم يقرفص بجواره على الأرض، أحياناً يجلس معه داخل الكرتونة ضاماً ركبتيه إلى صدره حتى لا يصدمه فيتهشم، يهش الصقور والنوارس والزرازير عنه، يُغيّر المياه من جواره، رغم أنها لم تنقص.

بعد فترة، أصابه اليأس والملل، فتوقف عن فتح البلكونة، عن تغيير المياه، عن طرد الصقور والحدآت، نسج عنكبوت بيته فوق الكرتونة، وبنت حمامة عشها جوارها، ونسي الأمر برمته.

اليوم، فقط، عاوده شعور قديم فقده من زمن، شجن خفيف عندما سمع صوت أم كلثوم تصدح بأغنية "يا صباح الخير يا اللي معانا" قادمة من برنامج "صباح الخير يا مصر". عادت المشاعر تطل برأسها من داخله في خوف ثم لم تلبث أن اختبأت، اليوم شعر ببعض الحنين، بلهيب الذكريات. اليوم فقط، عاد قلبه مرة أخرى، واليوم أيضاً، لمح ملاكين يرفرفان حول كتفيه، لكنه قبل أن يلمسهما اختفيا تماماً.

عنكبوت في طرف بلوزة زرقاء

أعاد قلبه إلى موضعه داخل صدره، خبأ الكرتونة تحت السرير فربما احتاجها مرة أخرى، ألقى نظرة على ببغائه "تأبط شراً" عندما تخيل للحظة أنه ابتسم، لكنه وجده، كعادته، مصوباً عينيه إلى بلكونة الجيران حيث يغمز للعصافير التي تشرب من إصص الزرع، ويلقي ببيت من الغزل العفيف.

سارع بفتح النافذة عندما سمع صوت الحافلة مقبلاً من ناحية ميدان السيدة عائشة إلى شارع السلطان حسن حيث يسكن، وجد الركاب ينظرون من نوافذهم المفتوحة تجاهه، وهم يهللون ويشيرون له بعلامة النصر، ابتسم في وجوههم جميعاً، حتى ذلك الكمساري الذي نهر امرأة كانت تنظر من النافذة بدلاً من أن تريه التذكرة.

مد يده إلى صندوق أزرق صغير أسفل قدميه، أخرج منه طائرة ورقية ملفوفة بعناية، فكها بحرص، ثم أطلقها من النافذة، حلّقت قليلاً قبل أن يفلت خيطها، تابعها بعينيه حتى اختفت فوق "قلعة صلاح الدين"، والتي بدت لامعة كأنها مخلوعة لتوها من فوق عملة معدنية، ابتسم مبتهجاً ثم أغلق النافذة مرة أخرى وهو يربت على موضع قلبه، كجزار يربت على كرشه الناتئ في رضا.

لم يحتمل أن يظل جالساً في البيت وحده، فرحته بقلبه الذي أعادة إلى صدره مرة أخرى دفعته للخروج، للحظة ابتسم عندما

t.me/qurssan

تخيل نفسه بدلاً من عبد الحليم حافظ في فيلم شارع الحب وهو يغني "يا اصحابي يا أهلي يا جيراني.. أنا عاوز آخدكم في أحضاني".

ارتدى ملابسه على عجل، فلم ينتبه وهو يلبس جورباً من لونين مختلفين، شد حمالات بنطلونه الزرقاء فوق قميصه الأبيض في مرح، أطلق صافرة باللحن، ظلت الأغنية تتردد في ذهنه طوال الطريق، فيبتسم لسائق الميكروباص الذي كان ينظر إليه عبر المرآة الأمامية في استهجان وتوجس.

في شارع شامبليون بوسط البلد، جلس على مقهى "عم صالح" يتأمل بائع الفول، ذا المريلة القذرة، وهو يخرج الفول من القدرة بحركة بهلوانية، ثم بحركة بهلوانية أخرى يضع الزيت الحار أو الحلو ـ حسب رغبتك ـ ثم التوابل، ثم يعصر نصف ليمونة، ثم يضع قليلاً من السلطة الخضراء القذرة، ثم يقلبها مراراً، ثم يميل بجذعه لكي يحشو نصف الرغيف المهترئ بمعلقتي فول، ثم يلفه في ورقة من صحيفة "الجمهورية"، ويناوله للمشتري الذي يزدرد ريقه بعد أن جعلته هذه الحركات البهلوانية أكثر جوعاً.

سعادته بعودة قلبه لم تمنعه من السؤال: نعم عاد قلبي، لكني لم أحب أحداً بعد. أليس من المفترض أن يعود قلبي عندما أشعر بالحب؟، أم أنه يعود أولاً ثم أشعر بالحب بعد ذلك؟ شعر أن الأمر يشبه سؤال الدجاجة والبيضة، أيهما أولاً، فكف عن التفكير ورفع صوته منادياً عم ممدوح لكي يحضر له شاياً بالحليب كما تعود، لكن الرجل الذي يجلس على مقعد مجاور، مال عليه قبل

أن يكمل نداءه قائلاً:
ـ يقدمون هنا "حلبة بحليب" ممتازة.
لم يفهم، هل قرأ الرجل أفكاره، أم أنه يعمل في المقهى، أم يكلم نفسه، لكنه عندما التفت إليه، فكر أنه ربما كان يتحدث إلى المشروب الذي يحتسيه، إذ كان يحدق في كوب نصف ممتلئ بسائل أصفر يمسكه في يده. لم يكن هذا فقط هو ما لفت نظره في الرجل، فملابسه الملونة ونظارته التي تشقق زجاج عينها اليسرى وشعره الذي يخبئه أسفل قبعة رعاة بقر أمريكية، تجعله أشبه بالشخصيات المرسومة على أغلفة الكتب الخيالية.
رفع الرجل عينيه إليه، ومد يده بالسلام مبتسماً:
ـ علاء الدين
مد يده بالمقابل متوجساَ:
ـ بيبو.
أومأ الرجل برأسه عدة مرات، كأنه يؤمن على كلامه:
ـ أعرفك جيداً.
ـ هل التقينا من قبل؟
ضحك الرجل ولم يجب مباشرة، فيما أخذ بيبو يتأمل ملامحه، وهو يحاول أن يتذكر إن كان قد رآه من قبل أم لا: التجاعيد الكثيفة أسفل عينيه، حاجباه البيضاوان، لحيته الخفيفة المتروكة بإهمال لكن شعيراتها البيضاء توحي أنه في منتصف الخمسينات، فمه المتسع على ابتسامة متجمدة، تقطيبة جبينه التي تجعله أقرب لملامح و .هـ . أودن، وجهه الرمادي الذي يبدو من بعيد

t.me/qurssan

كأنه صورة بالأبيض والأسود لرجل تائه مقطوعة من صحيفة "الجمهورية"، ملابسه الزاهية التي يخبئها أسفل معطف طويل، لكن الرجل قطع أفكاره باسترساله في الحديث:

ـ مبروك قلبك أولاً.

كانت هذه هي المفاجأة الثانية لبيبو، فعودة قلبه إلى مكانه ـ فضلاً عن أن أحداً لا يعرف بالأمر ـ لم تصنع فارقاً في شكله، ربما ابتهاج زائد، ربما انتفاخ بسيط، لكن غير هذا فلا شيء مختلف.

ـ كيف عرفت؟

ابتسم علاء الدين رداً على سؤال بيبو العدواني المتوجس، ثم مد يده بفتات خبز التقطه من بقايا ساندويتش على طاولة مجاورة إلى جيب معطفه الداخلي حيث يطل عصفور صغير، ثم رفع عينيه إلى يببو بنفس الابتسامة:

ـ العصفورة قالت لي.

أحس للحظة أن «الإفيه» قديم بعض الشيء، فأكمل بآخر، لكنه كان أكثر قدماً:

ـ «إنت ماتعرفش إني ممكن أقرا أفكارك، ومن عنيك ممكن أقول لك كل أخبارك؟».

رجل سخيف ثقيل الدم، هكذا فكر بيبو، لو كان في ظرف آخر لأجابه مثلما أجابت رقية إبراهيم في فيلم «رصاصة في القلب» محمد عبد الوهاب: «حكيم روحاني حضرتك؟»، لكنه لا يريد أن يعكر مزاجه، لذا آثر أن ينطق بكلمة واحدة، تلخص ملله من كل

ما يحدث:
ـ أؤمر
ـ الأمر لله يا بني.أريد منك خدمة بسيطة فقط.
لم ينطق بيبو بحرف، وإن ظلت نفس النظرة الصارمة في عينيه، فأكمل:
ـ أريد أن أحتفظ عندك بأمانة حتى أعود من السفر.
كانت هذه هي المفاجأة الثالثة التي لم تمهله حتى للتفكير في المفاجأتين الأوليتين، وبدا أن الأمور تسير في منحنى خطر، وأنه مدفوع للسير فيه بكامل طاقته، إذ يبدو أن الرجل يعرفه جيداً، وإلا لماذا سيأتمنه على شيء، لكن من هو أولاً. هم بيبو أن يرفض وينهي الأمر، لكن خوفاً بداخله من الرجل الذي يعرف عنه أشياء لا يعرفها أحد، وربما يقرأ أفكاره، جعله يسأله:
ـ أية «أمانة»؟
مد الرجل يده إلى جيب معطفه الكبير، وأخرج لفافة طويلة قليلاً:
ـ هذا المصباح.
قبل أن ينطق بيبو، واصل علاء الدين:
ـ أنت تعرف الحياة ليس لها أمان، اختلفت مع الجني وزوجتي، تصور أنها تصفني بالشيوعي، وتتهمني أنني أصرف أموالي على الفقراء، أمس.. أمس قالت لي أنت ماركسي، رغم أنني أكره ماركس، أرفض أن أسلم عقلي لأي شخص يصب فيه ما يشاء، ربما أحب بعض أفكاره، لكن أرفض أن يلحق اسمي باسمه،

t.me/qurssan

ومرة نعتتني بأني تروتسكي، أنا؟ أنا؟ تصور يا مؤمن تصفني بالتروتسكي؟ الجني وقف أول أمس أمام مسجد الحسين، وفي وسط المولد، وقال لي إنه تعب مني: كل يوم شغل كل يوم شغل، أخذ يصيح أن خزائنه نفدت، وأنه تعب من عمل الفتة والأرز لفقراء الموالد. كلمة منه على كلمة مني قررت بعدها أن أحبسه في المصباح.

كان علاء الدين ينتفض غضباً وهو يتحدث عن ثورة الجني عليه، فربت بيبو على كتفه في رفق:

ـ طيب اهدأ. هل أحضر لك كوب ليمون؟

لاهثاً أجاب:

ـ لأ.. أريد حبوب الضغط فقط.. أين هي.

فتش جيوبه في عصبية، قبل أن يمد له العصفور كبسولة دواء بمقدمة منقاره فالتقطها ممتناً:

ـ شكراً يا ذوق.

ألقاها في فمه، والتفت إلى بيبو:

ـ عموماً سأمر عليك فيما بعد لآخذ الأمانة، لا أريد أن يكون معي الآن. بلغ تحياتي لتأبط شراً.

قام منصرفاً، وتحرك خطوتين للأمام، قبل أن يلتفت إلى بيبو قائلاً:

ـ حاسب لي على الحلبة بحليب، ليس معي نقود، أنت تعرف الظروف.

ظل بيبو ينقل عينيه بين الطريق الذي سلكه علاء الدين، ولفافة

المصباح أمامه على الطاولة، محاولاً أن يستوعب ما حدث. بعد ثلاث دقائق بالضبط اتخذ القرار، وضع اللفافة في حقيبته الجلدية، ثم دفع لعم ممدوح ثمن الحلبة بحليب، والشاي بلبن الذي لم يطلبه، وتحرك سريعاً في إثر علاء الدين، لكنه كان مثل فص ملح ذاب في دوامة مياه مجنونة.

لأكثر من ساعتين، لم يكلّ بيبو من البحث عنه، متنقلاً ما بين شوارع محمد محمود والشيخ ريحان ومحمد فريد وعدلي وعلوي والألفي وطلعت حرب وشريف و٢٦ يوليو وعبد الخالق ثروت، كأنه عقرب ساعة مجنون يدور بلا توقف.

ملّ من السير والتحديق في وجوه الناس بحثاً عن علاء الدين، فتوقف أمام عمارة «الإيموبيليا» يائساً، استند إلى أحد حوائطها الضخمة ليلتقط أنفاسه ويرتب أفكاره، لمح اسم مطعم في ممر داخلي، فقرر أن ينسى الأمر قليلاً، وأن يحتفل بعودة قلبه بأن يدعو نفسه إلى وجبة دسمة ترمم خلاياه الذابلة.

في المطعم، كانت النادلة تشبه إلى حد كبير زميلته في العمل أودري تاتو، نفس العينين الصافيتين والغمازتين الخفيفتين والوجه المثلث والشعر القصير والابتسامة الهادئة. انتبه إلى أنها تنظر كثيراً إلى قدميه أثناء تناوله الطعام، لدرجة أنها لم تلاحظ أنه ينظر كثيراً إلى عنكبوت صغير مرسوم في طرف بلوزتها الزرقاء، فنسي أن يستمتع بطعامه المفضل: ملوخية بالأرانب مع الأرز والسلطة الخضراء، ولم ينتبه إلا وقد فرغت الأطباق أمامه. سحب منديلاً ورقياً من علبة أمامه، مسح يديه ثم نظر إليها

t.me/qurssan

مباشرة وهو يضع سيف يده اليسرى على منتصف كفه الأيمن، طالباً الحساب دون أن يتكلم، فابتسمت وهي تدنو منه، وتضع أمامه ورقة خضراء في طبق زجاجي صغير:

ـ أعجبك الأكل؟

ـ تسلم يدك.

ـ نحن هنا نطهو طعاماً منزلياً.

لم يعرف بماذا يجب أن يجيب، فتمتم بشيء معناه أن الأكل رائع، لكنه لم يفهم ماذا قال، ولم تفهم هي أيضاً، وإن كانت هزت رأسها دليلاً على الامتنان بإبداء الإعجاب المتوقع.

ودّ أن يسألها عن العنكبوت في طرف بلوزتها، فلم يجد في نفسه الجرأة، تمنى لو تحدث معها قليلاً، لكنها ابتعدت عنه في نفس اللحظة التي شعر فيها بشيء يتحرك في صدره. بثقل خفيف في الناحية اليسرى، ببخار خفيف يتصاعد من فمه له رائحة أشبه برائحة البخور الهندي بدا كأنه ناجم عن فوران في الداخل.

خشي أن تلاحظ شيئاً، فدفع الحساب وأسرع خارجاً، دون أن ينطق بكلمة أخرى، فيما إحدى يديه تضغط على صدره محاولة تهدئة قلبه، والثانية تدوس على المصباح الذي أحس بهزة خفيفة داخله، كأنهما مرتبطان ببعضهما.

ولأول مرة منذ سنوات طويلة يزور الأرق بيبو.

ففي هذه الليلة لم ينم جيداً، بل ربما لم ينم أصلاً.

مقعد فارغ في القطار أمام أودري تاتو

كانت الساعة تشير إلى تمام منتصف الليل، عندما دق جرس الباب، فقام متثاقلاً من سريره، جاراً قدميه إلى الخارج.
لم يضايق بيبو أن شخصاً يدق بابه لأول مرة منذ فترة طويلة، فهو يسكن وحده ولا يعرف أحداً من سكان البناية، بل ضايقه أنه ـ لأول مرة ـ لا يستطيع النوم بمجرد أن يضع رأسه على الوسادة كما تعوّد. فتح الباب، ليجد أمامه شخصاً أزرق اللون، يرتدي ملابس تشبه زي عمال الديليفري في مطاعم شارع عباس العقاد، وفي يده صندوق زجاجي صغير يشع منه ضوء أزرق شديد الخفوت. فقال بيبو وهو يغمض عينيه، محاولاً خداع النوم وإحراج الطارق:
ـ نعم؟
رفت على شفتي الرجل الأزرق ابتسامة عتاب، كأنه صدم من المقابلة الجافة:
ـ ألا تعرفني؟
فتح بيبو عينه اليسرى وتأمل الرجل مرة أخرى، ثم أعاد إغلاقها.
ـ آسف والله، من أنت؟
ـ أنا الأرق.
ـ أهلاً وسهلاً، أؤمر.
ـ الأمر لله يا بني

t.me/qurssan

ـ...؟؟!!
ـ أريد أن أسهر معك قليلاً.
اعتاد بيبو ألا ينهر غريباً، بل كثيراً ما أضاع نقوده على الشحاذين، ومندوبي المبيعات الذين يلفون ببضاعتهم المغشوشة على المقاهي، واشترى منهم أشياء لا يحتاجها جبراً لخواطرهم، لذا فتح الباب دون كلمة أخرى، سامحاً للرجل بالدخول.
على كنبة بيضاء كبيرة بجوار البلكونة، وأمام مسرحية «العيال كبرت» على «الفضائية المصرية»، جلس الأرق وبيبو متجاورين يشربان النسكافيه، وبينهما الصندوق الأزرق، كأنه أحجية تحتاج إلى حل.
بعد ساعة تقريباً، استنفد بيبو كل ما تعلمه من أخلاقيات الضيافة، فظل صامتاً وهو يرمق الأرق الذي يردد إفيهات المسرحية قبل أن تقال ويضحك بصوت عال، ويدبدب بقدميه على الأرض كطفل صغير. لم يكن بيبو يضحك حتى من باب المجاملة، لأن عقله كان مشغولاً بشيء آخر، بقلبه الذي خفق عندما رأى عاملة المطعم، بالمصباح الذي يخبئه معه وتحرك عندما فار قلبه. في أنه من العيب أن ينام وضيفه يجلس بجانبه يشاهد التلفزيون.
مع نهاية الفصل الثالث من المسرحية، بدأ الرجل الأزرق وصندوقه يبهتان. وعندما ارتفع أذان الفجر، وتعالت أصوات الديكة في الخارج متلاحقة، وهز نسيم الفجر الخفيف ستارة البلكونة، ومالت رأس بيبو جانباً على الكنبة تاركاً فمه نصف مفتوح، كانا قد تلاشيا تماماً.

في الصباح، عندما وصل بيبو إلى عمله بمستشفى العباسية للأمراض النفسية متأخراً على غير عادته، لم يجب على عامل البوفيه عندما سأله:

ـ ماذا حدث يا أستاذ بيبو؟، ليست عادتك.

لكنه رد على زميله «إتش» الذي كان يلتهم ساندوتش القشدة بالمربى الذي تعده له زوجته كل صباح، ويخبئه بعد كل قضمة في درج مكتبه نصف المفتوح:

ـ لم أنم جيداً.

شد الحمالات التي يرتديها فوق قميصه إلى الأمام بقوة، ثم تركها لتلسع صدره فتتنبه قليلاً. رفع عينيه من على شاشة الكمبيوتر أمامه محدقاً في الجدار الزجاجي الذي يفصل الغرفة التي يعمل بها عن الممر المقابل، منتظراً مرور كيت وينسلت، لكنها لم تكن قد وصلت بعد. لم ير منذ الصباح سوى نبتة صبار تغط في النوم أسفل الجدار المقابل، وعاملين أحدهما بكرش والآخر أصلع تماماً عبرا مسرعين، وأودري تاتو التي وقفت عند مدخل الباب بسالوبيت أزرق جعلها أشبه بعمال المناجم، لكن غمازتيها الجميلتين أجبرتاه على الابتسام:

ـ صباح الخير

ـ صباح الفل

ـ مالك؟، تبدو هشاً.

شعر أن هذا هو التوصيف الدقيق لحالته في هذه اللحظة، فكاد أن يعترف لها بالحقيقة، غير أن شيئاً ما في وجهها أجبره على

t.me/qurssan

الابتسام والصمت، ربما ملامحها الهادئة المريحة، أو شعرها القصير الذي يشبه شعر الأولاد في الصف الأول الابتدائي، أو لمعة في عينيها.

ـ سهرت أشاهد فيلماً، فلم أنم جيداً.

يحفظ كل أفلام أودري تاتو، وكلما رآها حدثها عن دور لها في أحدها، لدرجة أنه كان يكرر لها نفس الكلام، وفي كل مرة تستمع إليه صامتة دون أن ترد، والابتسامة لا تفارق وجهها.

أنقذها هذه المرة، زميلها الطبيب الذي جاء مهرولاً ليحدثها عن مريض أصيب بنوبة هستيرية، فاستأذنت ثم أسرعت خلفه.

مرّت كيت، ملوحة بيدها، فحرص أن يلقي دعابة صغيرة، لكي تطلق ضحكتها العالية، فتبين أسنانها، ويتأكد أن السوس بدأ ينخر فيها، بسبب عدم استجابتها لنصيحته بالتوقف عن التدخين.

اعتاد بيبو أن يقضي ساعته الأولى في العمل هكذا، ناظراً إلى الممر أمام الغرفة عبر الزجاج الذي يفصلها عن الغرفة المقابلة، عله يبدأ يومه بكيت وينسلت وهي تمر، ودخان سيجارتها يتصاعد من حولها، أو أودري تاتو، بمشيتها السريعة الصارمة، فيما يترك لذهنه عد الفوارق الكبيرة بينهما؛الأولى تهتم بإبراز أنوثتها، ممتلئة إلى حد ما، الثانية أقرب إلى المراهقين، تحاول أن تتخذ طابعاً رجولياً يتناسب مع أفكارها. الأولى ترى أن المرأة شريكة للرجل ويجب أن تسعده وأنه لا بأس إذا تركت العمل لتصبح ربة منزل، والثانية ترى أنها أفضل من الرجل ويجب أن يخترعوا طريقة يشاركها بها الحمل والولادة، الأولى تعتبر نفسها ملكة

المطبخ، وتملأ حسابها على إنستغرام بصور الأكلات التي تعدها، والثانية لا تفارق حسابها على تويتر في أوقات الفراغ، وتحضر المؤتمرات النسوية الغاضبة، صادفها أكثر من مرة في وسط البلد على مقهى البورصة، لكنه اكتفى بتحيتها بإيماءة برأسه من بعيد عندما رأى رفيقاتها في جمعية «الزعانف الخضراء» اللائي نبتت لهن زعانف في ظهورهن، فآثر عدم الاقتراب منهن.

بعد قليل دخل زميله عبد الحليم حافظ متأخراً كعادته، وهو يلقي باللوم على الزحام، ثم حيّا بيبو بإشارة من يده، فرد عليه بهزة من رأسه، وعاد ينظر إلى شاشة الكمبيوتر، محاولاً إيقاظ نفسه بالانهماك في العمل.

يحب بيبو عمله، أو يمكن القول: يحب رتابة عمله، والتفاصيل الصغيرة التي تتكرر بنفس الحماسة كل يوم. يستيقظ في السادسة صباحاً تقريباً، يعد إفطاراً خفيفاً سريعاً، يأكله واقفاً، مع رشفات من كوب شاي ساخن، فيزداد نحافة كما ترى أمه، وربما طولاً كما تقول المرآة. يذهب إلى العمل قبل الجميع، يبتسم لكيت وأودري عندما يراهما، ويشارك ٥ أشخاص في المكتب المزدحم بالكمبيوترات العتيقة، أقربهم إليه زميله «إتش»، الذي لا ينفك يخرج ساندويتشات الفول من حقيبته ويأكل دون أن يدعو أحداً، وبعد أن ينتهي ويمسح يديه في ورقة من صحيفة «الجمهورية» التي يدمن قراءة صفحتها الرياضية، ينظر إلى زميله عبد الحليم حافظ حاسداً إياه على اسمه المميز، فيرد عليه الأخير ضاحكاً بنفس الرد اليومي أن والده كان يكره فريد

t.me/qurssan

الأطرش فأسماه بهذا الاسم المركب نكاية فيه، قبل أن يقطع حديثهما اليومي صوت مدير الإدارة التي يعمل بها مطالباً الحاضرين بالصلاة على النبي.

يخيم الصمت بعد «الصلاة على النبي» الجماعية، ولا يقطعه سوى ضحكات «واو» العالية على مقاطع فيديو يشاهدها على هاتفه دون اهتمام بمن حوله، ثم حديثه عن الرسائل التي يبعث بها إلى موسوعة جينيس للأرقام القياسية، وشكواه من «الكوسة» في المؤسسات العالمية التي تجعلهم لا يردون على مراسلاته، لكن أحداً من زملائه لم يكن يرد عليه بأن السبب هو إصراره على تحطيم أرقام قياسية غير ذات مغزى، مثل قراره أن يذهب كل يوم إلى العمل وهي يقود سيارته إلى الخلف من بيته حتى يصل إلى المستشفى.

يحب بيبو ـ والحق يقال ـ مديره، خاصة بعد أن أجرى عملية لاستئصال الشتائم من حلقه، وتحول بعدها إلى شخص آخر لا يُسمع صوته إلا نادراً، لدرجة أنك لو شتمته لن يرد عليك إلا بابتسامة، وكثيراً ما ضرب بيبو بهذا الأمر المثل، للتدليل على التقدم الطبي في مستشفى جامعة عين شمس.

الوحيد الذي يظل صامتاً تماماً كأنه في مكان آخر هو عبد الله هدهد، يتابع كل ما يحدث دون أن يعلق، فيما عيناه تنظران إلى لا شيء على الشاشة أمامه. وعندما يعلو الصخب قليلاً، يقوم إتش ويضع له ساندوتش حشرات مجففة في طبق أمامه، ويهمس في أذنه:

ـ لا تشغل بالك يا عم عبد الله، ركز في اللاب توب.
ثم يضع له سماعات الهيدفون حول رأسه الصغير، فينبعث منها صوت عبد الوهاب "يا مسافر وحدك وفايتني، ليه تبعد عني".
يعرف بيبو حكايته من كثرة ما رواها إتش أمامه: كان موظفاً عادياً في الحسابات، وفي يوم تمكنت عصابة مكونة من ٥ أشخاص، بينهم هاربَان من وجه العدالة، من سرقة ٧٠ ألف جنيه منه، أثناء نقله المبلغ من البنك إلى المستشفى لصرف علاوة للموظفين، وذلك بعد أن وضعوا له طعماً في الشارع عبارة عن "رزمة جنيهات«. أمام المحكمة حكى ما حدث. قال إن أحد أفراد العصابة ألقى رزمة الجنيهات في طريقه، وعندما حاول التقاطها ظهر له الرجل وقال إنهما شاهداها سوياً وإن عليهما اقتسامها، وعندها طمع عم عبد الله هدهد في المال. فسار مع رجل العصابة إلى زقاق جانبي ضيق لاقتسام النقود، وهناك فوجئ بخروج باقي العصابة واعتدائهم بالضرب المبرح عليه وسرقوا منه الـ٧٠ ألف جنيه الخاصة بالمستشفى.
لم يكن عبد الله لصاً، لكن النيابة وجهت له تهمة الطمع، وقالت في حيثيات حكمها إن الطمع يقل ما جمع. وكان في الحيثيات سبب آخر لا علاقة له بالأمر، أنه أرسل يوماً إلى لجنة نوبل للسلام طالباً ترشيح أحد المجانين بالمستشفى للجائزة. وفي حين قضت المحكمة بالسجن على أفراد العصابة، حكمت عليه بتحويله طائراً، ولأن اسمه «عبد الله هدهد»، ولكل شخص من اسمه نصيب قلبته هدهداً، ثم أعادته إلى عمله مرة أخرى. يأتي

t.me/qurssan

كل يوم إلى العمل وينصرف في موعده. ينقر زر البصمة في الصباح وفي وقت المغادرة، وينكب طوال اليوم على لاب توب (ماك بوك) صغير أمامه ينقر أزراره دون أن يتحدث كثيراً، لكنه اعترف ذات مرة لإتش إنه سعيد بحياته الجديدة، يكفي أنه لا يضطر إلى ركوب الاتوبيس بل يذهب إلى العمل طيراناً.
يقضي بيبو معظم الوقت في العمل بلا عمل، مثل كل المصالح الحكومية. فقط يتصفح مواقع التواصل الاجتماعي على الكمبيوتر أمامه دون أن يكتب تعليقاً أو يرد بـ»لايك»، يستمع مجبراً إلى إنجازات إتش في «جمعية جامعي أعقاب السجائر الخيرية السعيدة»، التي أسسها مع أصدقاء له لمساعدة أطفال الشوارع، والتحايل على ارتفاع أسعار كل أنواع المخدرات، ثم ينتقلان للحديث عن الفرقتين اللتين أنشآهما «الجنافر» و»الكيتات».
بيبو منحاز بالسليقة لـ «الجنافر»، ليس لأنها على وزن «السنافر» رغم أنه يحبهم بطبيعة الحال، لكن لأنه يحب أي فتاة اسمها جنيفر، ويقضي معظم الوقت يتحدث عن جنيفر لورانس، وجنيفر لوبيز، وجنيفر أنيستون، جنيفر جارنر وجنيفر جيسون لي، أما إتش فمستعد للموت فداء لـ «الكيتات»، ويقضي وقته متحدثاً عن ميزة كل من كيت وينسلت وكيت هيدسون وكيت بلانشيت وكيت بيكينسيل وكيت ميدلتون، حتى كيت هارتيغنون ـ رغم أنه رجل ـ وهو ما كان يسخر بيبو منه دائماً بقوله:
ـ أنت لا تعرف شيئاً يا جون سنو.
كل يوم يناقشان فيلماً انطلاقاً من بطلته، يستبدلانها بكيت مرة

وبجنيفر مرة أخرى، يقارنان الأداء ثم يُقيّمانه بناء على ذلك. يقول بيبو إن كل من اسمها جنيفر جميلة، ويقول إتش إن كل كيت فنانة بالسليقة. يتواصل الحديث حتى تدخل أودري تاتو بقامتها القصيرة، وملامحها الغلامية، فيصمتان تماماً، وينظر بيبو إلى الأرض كأنها أمسكت به يخونها.

لم يكن من الممكن فهم علاقته بأودري، هو أكثر شخص يعلم أنه لا تربطه بها علاقة عاطفية، لا يستطيع أن يفكر فيها كحبيبة أو زوجة، ومع ذلك لا يستطيع أن ينكر إعجابه الخفي بها، بأفلامها التي يتحدث دائماً معها عنها، فلا تجيبه إلا بهزة رأس مستمرة. لم يفكر مرة أن يقارنها بـ»الجنافر» أو حتى «الكيتات»، لأنه يعرف أن هناك فارقاً كبيراً، ليس في مستوى التمثيل أو الجمال، لكن في شيء لا يعرفه على وجه التحديد. يشعر به وهو يبتسم لها عندما تمر كل صباح من أمام المكتب وتقول له: «بونجور»، أو حتى لا تقولها، لكن إيماءة منها أو إضاءة غمازتيها أو ابتسامة كانت كافية بأن يتحول اليوم الاعتيادي إلى «يوم سعيد»، أو حتى إذا دخلت فقط لكي توقّع ورقة أو تسلم مستنداً يخص أحد الموظفين، أو تسأل عن أوراق أحد المرضى، إذا قابلها صدفة في الخارج، مستندة على الباب الزجاجي، وهي تطالع جديد المظاهرات والنكات والتجمعات النسوية الغاضبة على تويتر، في حضورها داخل المستشفى الذي يجعلها دائماً تبدو له كطالبة ثانوية عامة شقية وجميلة ومجتهدة في مدرسة من العواجيز.

كل ذلك كان يجعل إحساسه بها مختلفاً. لم يحب كل أفلامها

t.me/qurssan

بطبيعة الحال. لم يشعر أنها هي «أودري» التي يعرفها عندما شاهدها في فيلم «شيفرة دافنشي»، صارحها بهذا الرأي، وقال لها إنه يفضل أفلامها الفرنسية. لم تكن تجيبه. تبتسم فقط، ثم تغير الموضوع.

ذات مرة قال له إتش، إنها تبدو غير مهتمة بكلامه عن أفلامها، لكنه لم يكن يعتقد ذلك كثيراً. يدرك أنها لا تناقشه إطلاقاً فيما يقوله، غير أنه يعتبر هذا دليلاً على الخجل. المرة الوحيدة التي كادت أن تتحدث معه في ذلك، كانت عندما صادفها عند بائع جرائد في محطة القطارات برمسيس، وهي تطالع إحدى الصحف المعارضة، ابتسمت له عندما رأته فدعاها إلى كوبي إسبرسو من ماكينة النسكافيه بجوار متحف السكة الحديد، وعندما سألها عن أحدث أفلامها، ما كادت تفتح فمها لتجيبه حتى استأذنته لكي تلحق بالقطار الذي بدأ يتحرك، لتقضي إجازتها مع أهلها في مدينة فايد بالإسماعيلية. وقف مكانه يراقبها وهي تهرول بجوار باب القطار، ثم تقفز سريعاً ثم تختار مقعداً بجوار النافذة، هرول بمحاذاتها فابتسمت له، نظر إلى المقعد الخالي أمامها، ثم رد الابتسامة بخير منها.

كان يريد أن يقول لها: you made my day لكنها لم تسمعه، فقد انطلق القطار بسرعة.

يومها عاد إلى بيته سعيداً.

لكن بيبو اليوم، لا يفكر بالجنافر، ولا بالكيتات، لا بواو الذي يحطم الأرقام القياسية، ولا بإتش الغارق في ساندويتشات

زوجته، لا بمديره الخالي من الشتائم ولا بأودري أو كيت، كان مهتماً بذلك الشيء الذي يتحرك داخله، لأول مرة منذ سنوات. بقلبه الذي يدق، يدق، يدق، فيجعله يرفع رأسه إلى باب الغرفة، ظناً منه أن أحداً يطرق الباب.

t.me/qurssan

أحذية الآخرين

كانت حياة بيبو مختلفة تماماً قبل أن يتحرك قلبه.

في بيت ريفي صغير يطل على بحيرة البرلس بإحدى قرى كفر الشيخ، قضى بيبو سنواته الأولى. وفي شرفة غرفة بالدور الثاني تطل على البحيرة مباشرة، امتلأت رأسه بالأحلام التي لم تتحقق، حلم بمواجهة موبي ديك، ركب القارب مع "العجوز والبحر"، شاهد "قراصنة الكاريبي" وصدّقه، لكنه لم يجرؤ أبداً على خوض غمار البحر.

رأى أعمامه يخرجون في رحلات طويلة للصيد، عندما كبر عرف أن بعضهم اختُطف من قراصنة الصومال، وبعضهم اختار البحر طريقاً ليذهب به إلى مدينة على الشاطئ الآخر، يتحدثون فيها لغة أخرى، شوارعها مغسولة ونساؤها جميلات يرتدين التنانير القصيرة، وغرق البعض في مراكب قديمة، لكنه اختار البر.

يمكن القول إنه اختار البر والجو معاً، ففي غرفته الصغيرة قضى أياماً يصنع طائرات ورقية، من مكوّنات بسيطة، ما إن ينتهي من صنع واحدة، حتى يفتح شرفته ويُطلقها في السماء، يراقبها بعينيه حتى تختفي، ثم يشرع في جمع مكونات طائرة أخرى، وعندما تسأله أمه لماذا يضيع وقته في صنعها ما دام لا يلعب بها مثل باقي الأولاد، لم يكن يجيب، لكنه كان مقتنعاً بأنه إذا كان هناك مثل شعبي يقول: "اصنع الخير وارمه البحر"، فإنه

t.me/qurssan

يفضل أن يكون ”اصنع طائرة وأطلقها في الجو“، فربما تستقر في يد طفل لا يملك لعبة، أو تدل طائراً تائهاً في السماء إلى عشه، استخدمها مرات في توصيل رسائله ومساعدته في الإجابة على سؤال عمه مدرس العلوم العصبي: صنع أفضل طائراته على الإطلاق، وقف أعلى البيت، تأمل القمر المكتمل، أخرج قلماً وكتب على الطائرة الصغيرة ”يا ميرفت“، فكر في كتابة شيء آخر، لكن وجد ذهنه خالياً تماماً. فأطلقها، راقبها تحلق بعيداً بعيداً، في اتجاه بلاد لا يعرفها، لكن حتماً تسكنها ميرفت عبد العزيز.
كلما دخل عليه والده غرفته ووجده يصنع طائرة أو يتابعها بعينه في السماء، أو ممدداً على سريره يتأمل السقف ينصحه بأن يتوقف عن إضاعة وقته ويذاكر ليحقق حلمه، أن يكف عن الجلوس وحده حتى لا يُجن، ثم ينهي حديثه قائلاً: ”عندما تكبر، وتصبح في سني ستفهم“. لكنه عندما كبر كان والده قد كبر أيضاً، وأصبح ما بينهما شاسعاً، فتمنى لو استطاع أن يجمد والده حتى يبلغ عمره، ويصبحان صديقين، كي يستطيع أن يسأله: ها قد صار سني مثل سنك، ما الذي تريدني أن أفهمه مثلك؟
جده أراده أن يصبح قرصاناً، أمه أرادته أن يفتح مطعم سمك يسميه «ابن حميدو»، خالته أرادته «قبطاناً بحرياً» مثل الذين تراهم في الأفلام، أما والده فتمنى أن يراه طبيبا، يعمل في مستشفى نهاراً وفي عيادته ليلاً، ما دام قد فشل في تعلم حرفة البحر. لكن بيبو كان يقول لأمه: «إن أي شخص بإمكانه أن يصير طبيبا، لكن ليس بإمكان أي شخص أن يصير ما أنا عليه»،

لكن ما الذي هو عليه؟، لم تسأل أمه السؤال ربما إشفاقاً عليه، لكن الإجابة القاطعة هي: لا شيء.
ومع ذلك حقق حلم والده جزئياً، ورأى فرحة مكسورة في عينيه عندما أخبره أنه سيعمل في وظيفة إدارية بمستشفى حكومي بعد عامين من تخرجه وبيع ثلاثة قراريط لدفع ثمنها رشوة كي يحصل على الوظيفة، لكنه ظل يشعر بالذنب بعد أن مات والده باللوكيما، فربما لو صار طبيباً لاستطاع إنقاذه.
في أيامه الأولى بالقاهرة، التي سافر إليها للدراسة الجامعية، أدرك بيبو أنه اقتنص حياته التي طالما أرادها: من الجامعة إلى غرفته المستأجرة بأحد الأحياء الشعبية، ومن غرفته إلى الجامعة، وبينهما يمر على أشياء روتينية، وتُسهّل على من يريد أن يغتاله حفظ جدوله اليومي وتتبعه: محل الكشري، أو المطعم السيء على ناصية الشارع الذي يبيع دجاجاً ميتاً أو مقتولاً في الغالب، ثم بائع الصحف، ثم المقهى، ثم يعود إلى غرفته ليشاهد فيلماً لجنيفر لورانس شاهده عشرات المرات من قبل، أو يتأمل روح أوسكار وايلد التي ترفرف حول الكتب والمجلات القديمة المكومة في الركن، أو يكمل صنع طائرة ورقية، أو يراقب بطريقاً رسمه بالقلم الرصاص على الحائط يكبر يوماً بعد يوم، قبل أن يكتشف أنه أنثى وقد تضع له بطريقاً صغيراً في الأيام المقبلة.
يكتفي بأن تكون أكبر مشاكله في الحياة أن الملح زائد في الطعام، يشعر بالأسى لأنه لم يترك لتر بنزين فوق السطح لعابري السبيل من الأطباق الطائرة، يرسم قلوباً مشقوقة على

t.me/qurssan

أشجار الجامعة، ويحاول كتابة اسمه بالخط الثلث على الكتب الدراسية، ثم يكتشف أن خطه سيء، فيكتب بلون آخر أسفل الاسم: «حَسّن خطك».

لكن مع ذلك، فبيبو سعيد بوحدته، بحريته. هل الوحدة تساوي الحرية؟ نعم ما دمت تتحرر من الآخرين، من أسئلتهم، من اقتحامهم تفاصيل حياتك، من سخافاتهم اليومية بـ «صباح الخير»، و»صباح النور». سعيد لأن ملامحه عادية بلا شيء مميز، أن وجهه لا يعلق في ذاكرة أحد، لا أحد يتذكره، بل ظل يرفض التقاط صور جماعية له سواء مع زملاء الجامعة أو في أي تجمع آخر، لم يكن يريد لأحد أن يحتفظ بجزء منه، حتى لو كان جزءاً من صورة، كي يتسلى فيما بعد مع أولاده، على الكنبة أمام التلفزيون:

ـ ومن هذا الذي في الصورة يا بابا؟

فيحاول بابا أن يتذكر الاسم جاهداً، قبل أن يقلب صفحات الألبوم إلى صورة أخرى، وربما يطلق سبة.

أو يقول أحدهم لزميله على المقهى:

ـ هل تذكر بيبو؟

فيرد الآخر مندهشاً:

ـ ياااه. اختفى تماماً، أين ذهب؟

. فيشرد الأول وهو يقطم ساندوتش الفول أمامه:

ـ لا أحد يعرف.

ثم ينتقلان إلى موضوع آخر في سلاسة، وكأنهما لم يتحدثا عنه

أبداً.
غواية الوحدة، جعلته يختار أن يعيش بمحاذاة الآخرين بطرق مختلفة، كي يستطيع أن يفهم ألاعيب الحياة دون أن يتورط فيها، فعندما كان طفلاً حلم أن يصبح أمين مكتبة، أو بائع جرائد، أو بائعاً في محل أفلام فيديو عندما يكبر، أقصى ما يمكن أن يفعله تبادل عبارات روتينية مع الزبائن، ثم يعيش في حيوات الآخرين في الأفلام والروايات وصفحات الحوادث في الصحف.
اكتشف بيبو طريقة أخرى، بينما يشاهد فيلم «أن تقتل طائراً محاكياً»، عندما روى بطله جريجوري بيك مثلاً قديماً يقول «أنت لن تعرف الرجل حقاً حتى تمشي في حذائه»، فقرر بيبو أن يُطبّق المثل حرفيّاً.
وحتى لا يشك أحد في نواياه أو يتهمه بسرقة الأحذية، أؤكد أنه كان يحصل عليها بطريقة مشروعة. بعد دقات منتصف الليل، وبعد أن يخلد الجميع للنوم يتسلل حافياً لصناديق القمامة في الشوارع المجاورة، ويقلب فيها بحثاً عن حذاء قديم. يرتديه من فوره، ويترك الحذاء يقوده إلى حياة صاحبه الأصلي. في أحيان كثيرة قادته الأحذية إلى المقابر عندما يكون صاحبها ميتاً، لكن في أحايين أخرى كشفت له أسراراً تكفي لسجنه أو جنونه.
أصبح المشي ـ سواء في حذائه أو في أحذية الآخرين ـ رفيق وحدته لسنوات، يظل يسير ويسير ويسير، حتى إذا تعب دخل أول مقهى يقابله وطلب شاياً بالحليب ثم يسند رأسه إلى الخلف وينام قليلاً، ثم يقوم ليواصل جولة لا تنتهي، يدخل سوبر ماركت

t.me/qurssan

يتأمل العبوات المكدسة المتشابهة على الأرفف دون اهتمام، ثم يخرج دون أن يشتري شيئاً. في شهر رمضان، يفضل أن يفطر على موائد الرحمن، ربما بحثاً عن حكاية ناتئة في حديث عابر أو حتى كي يتذكر صوته الذي نسي رنته من طول صمته، وهو يقول لموزعي الطعام: شكراً. وربما لكي يشعر بونس خفيف دون احتكاك فعلي مع أي أحد.

يفكر أن حياته تشبه حياة كبار السن، سواء هؤلاء الذين في دور رعاية المسنين ولا يتذكرهم أحد، أو حتى أولئك الذين في بيوتهم بعد أن تزوج أبناؤهم، وهجرهم أحفادهم وماتت زوجاتهم/ أزواجهم، وحيدون تماماً، لا يفعلون شيئاً سوى انتظار الموت، يرى هذا في وجوه الممثلين كبار السن، هؤلاء الذين يؤدون أدوار الموتى، أو الذين يظهرون في مشهد كي يموتوا في المشهد التالي له، هؤلاء الذين كانوا يوماً ملء السمع والبصر، ثم صاروا وحيدين تماماً، بمشهد وحيد، يرى ذلك في أعينهم التي تخدع المخرج ومدير التصوير والمونتير وعامل الكلاكيت وتسرب الحقيقة إليه.

ربما لهذا بدأ يفكر جدياً، منذ سنته الأولى في الجامعة، أن يشتري مقبرة. ورغم أن عائلته تمتلك واحدة في كفر الشيخ تضم رفات كل العائلة، إلا أنه يفضل أن يدفن وحيداً، لأنه يخشى إزعاج أقربائه بعد الموت. لا يريد أن يصدعه أحدهم بحكايات فارغة، وذكريات دنيوية لا تهمه في شيء.

ظل الأمر يؤرقه بشدة لفترة طويلة، فبدأ يزور مقابر البساتين

بحثاً عن المدفن الأنسب فتطارده الكلاب هناك، يذهب إلى مقابر أكتوبر فيتعثر في الأشباح، ينطلق سيراً إلى مقابر الفيوم فيجد مقبرة مفتوحة على مقاسه، فيهرول خائفاً.

كان سعيداً بنجاحاته باتجاه مزيد من الوحدة، والسير بمحاذاة الحياة، حتى اكتشف أنه لا يمكنه الانعتاق من العالم تماماً، حين كان عائداً من زيارة لمقابر السلام، ووقف أسفل شجرة سنط عملاقة منتظراً أي حافلة تعيده إلى البيت. قالت له الشجرة:

ـ لم يأت هنا أحد منذ زرت هذه المقابر آخر مرة.

وحين نظر لها غير مصدق، خاصة مع الجنازات التي صادفها في طريقه، تابعت:

ـ فقط غراب وببغاء، لعبا معاً وتنقلا بين أغصاني، ثم وارى أحدهما سوءة أخيه، وحط بعيداً على السياج.

ثم طيّرت بعض أوراقها باتجاه سور في الناحية الأخرى من الشارع. الغريب أن غراباً وقف على غصنها الأيسر بعد جملتها مباشرة ناعقاً، تأمله بيبو ثم قال:

ـ هل يمكن أن تنسيني من فضلك. لا أريد بعد موتي أو اختفائي أن يتحدث الآخرون عني أبداً.

مالت الشجرة بأغصانها قليلاً عليه، كأنها تهمس له بسر، تخشى أن يسمعه الموتى:

ـ ربما لا يحدث، ربما تصير بطلاً لرواية، ربما تحب نادلة، ربما تبحث أنت عن الناس.

وصلت الحافلة في نفس اللحظة، فركبها مهموماً. كان يريد أن

t.me/qurssan

يقول للشجرة إن الوحدة ليست ترفاً، ليست تكبراً، الوحدة استغناء. أن تكتفي بنفسك عن الآخرين. أن تصبح أنت كل عالمك. يتذكر قصة رواها باولو كويلو ـ ربما كانت منشورة في عدد قديم من صحيفة أخبار الأدب ـ عن أن مكتبته لا تحتوي إلا على ١٠ كتب فقط. وبغض النظر عن القيمة الأدبية لكويلو، فإن منطقه هو أنك إذا تملكت شيئاً ملكك، بمعنى أن أموالك وبيتك ووظيفتك وعائلتك وأصدقاءك وكتبك والأشياء التي تحبها وتمتلكها هي التي تتملكك، وتتحكم فيك مع الوقت، وليس أنت. فإذا استغنيت عنها، صرت حراً.

مع الأيام، ومع تقوقعه حول ذاته، أدرك بيبو أنه ليس بحاجة إلى مشاعر لكي يتعامل مع من حوله ما دام قد قرر أن يعيش وحيداً. ربما الأفضل له أن يصبح روبوتاً مثل الذي في أفلام الخيال العلمي، حيث كل شيء بضغطة زر، لا مشاعر، لا حب، لا كراهية، حياة وموت فقط، لا شيء آخر، لذا مد يده إلى صدره، خلع قلبه، فكر أن يلقيه في سلة المهملات، لكنه خشي أن يعثر عليه عامل النظافة فيتهمه بارتكاب جريمة قتل. وضعه أمامه على الطاولة، تأمل شعيراته الدموية، لم يشعر بأية عاطفة أو اهتمام تجاهه. بعد تفكير، قرر أن يعيده مكانه مرة أخرى، لكن سيدفنه حياً، وهكذا وضع بعض الطين والإسمنت عليه حتى سد مسامه تماماً، ثم أعاد إغلاق صدره.

متى كان ذلك؟ لا يذكر تحديداً، ربما في آخر سنته الجامعية الأولى، ربما صار بعدها أقل وحدة لأنه فقد كل المشاعر السلبية

أو الإيجابية تجاه الآخرين، تعرف إلى زملاء في الجامعة، سافر في رحلات معهم، لم يدخل في علاقات معقدة، ظل على الحافة من كل شيء، قدم في الداخل وأخرى في الخارج، لا يتورط في أي شيء. لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ يبدو أن فيروساً ما أصابه، ربما شمه على الكورنيش وهو يمر بجوار بنت تميل برأسها على كتف ولد ينظر إلى النيل، ربما تسلل إليه من شاشة السينما بينما يتثاءب وهو يشاهد فيلماً عاطفياً لتمضية الوقت، ربما دسه له أحدهم في ساندويتش طعمية، ربما انغرس في قدمه وهو يلبس حذاء أحد العشاق الموتى.

t.me/qurssan

مرآة لسنووايت

لم يعرف بيبو الحب في صباه ومراهقته، حتى حب «البحر» الذي يولد بالسليقة مع أطفال قريته لم يعرفه أيضاً.

أبوه أدرك هذا مبكراً، عرف أنه ليس من أبناء الماء، «والبحر يأكل من لا يبادله الحب»، يكررها أمام والدته كلما حدثها عن «الولد الخائب» كما كان يسميه، يدرك أن البحر لن يعيده إليه مرة أخرى إذا ألقاه فيه، لذا قرر أن يتركه يفعل ما يريد. وعندما أخبره أنه اختار حياة البر وقرر السفر للقاهرة لاستكمال دراسته في الجامعة، رافقه حتى موقف الميكروباص، وعاد من هناك مطأطئاً، فقد دفن طفله حياً.

ورغم أن بيبو دفن قلبه في نهاية عامه الجامعي الأول، إلا أنه ظل يبحث عن الحب دون أن يجده، ليس من أجل الحب في حد ذاته، وإنما كي يشعر أنه لا يختلف في شيء عن أقرانه. بحث في الوجوه التي حوله عمن تصلح أن تكون بطلة «حب المراهقة الأول» الذي يسمع عنه بلا أمل. لم يعرف أين المشكلة، هل في النظرية أم في التطبيق، أقصد هل المشكلة أن نظرية الحب الأول لا تسري على كل المراهقين، أم أن قلبه لم يعد يعمل. مرت ثلاث أعوام جامعية وهو يراقب زملاءه، كل اثنين يخرجان من الباب الرئيسي لجامعة القاهرة معاً إلى الكافيتريات المقابلة ومطاعم الوجبات السريعة وحديقة الأورمان وحديقة الحيوان،

t.me/qurssan

بينما هو يخرج وحيداً كأنه مصاب بلعنة تبعد الناس عنه، وهكذا مضت سنوات الدراسة مملة طويلة مثل قطار بضائع يتهادى ببطء في هويد الليل.

في العام الرابع استطاع أن يكسر النحس عندما قابل «سنووايت». في الحقيقة لم تكن أول مرة يقابلها في الجامعة فهي في عامها الرابع أيضاً لكن في كلية أخرى، كما أن قلبه لم يتحرك إلا عندما حركته هي بيدها.

في رحلة جامعية إلى الأقصر، وبعد أن شاهد مع زملائه الصوت والضوء في معبد الكرنك، وسهروا مع المشرف على الرحلة في نادٍ على النيل حتى منتصف الليل، وجدها تقترب منه وتسأله عن سبب جلوسه وحيداً دائماً. للمرة الأولى شعر أنه يريد أن يتحدث، فحكى لها كل شيء

في اليوم التالي، وفي مركب على النيل، وبينما الساعة تقترب من الرابعة عصراً، ظلا يرمقان البر الغربي والمعابد الفرعونية التي تبدو في الأفق، صامتَين. رنت قليلاً للسماء ثم قالت له:

ـ لديّ حل لمشكلتك.

التفت إليها وفي عينيه سؤال، فأكملت أن المشكلة هي ركود قلبه في مكانه، أنه لم يتحرك منذ مولده، والحل أن يزحزحه أحد قليلاً.

قالت جملتها، ثم مدت يدها للأمام باتجاه قلبه، وقبل أن تلامس يدها صدره، شعر أن قلبه ينسحب من مكانه بالفعل، مدت شفتيها للأمام، ونفخت قليلاً، فشعر أن الغبار يتناثر حولهما، أن

الطين والإسمنت اللذين وضعهما عليه منذ ثلاثة أعوام يتطايران أمامه، فخبأ عينيه حتى لا تتأذيان.

نظر إليهما الولد النوبي الذي يقود المركب، وقال:

ـ يبدو أن هناك عاصفة ترابية في الطريق، يجب أن نعود.

لم ينته الأمر عند هذا الحد، لأن بيبو بعد أن تحرك قلبه من مكانه، يجب أن يقع في حب أحدٍ ما، ولم يكن حوله في هذه اللحظة، سوى الولد النوبي وسنووايت والسمك في المياه، وكان الاختيار الأمثل: سنووايت.

سنووايت تكتب الشعر. هكذا تقول، وكان مضطراً لأن يصدقها لأنه يحبها، التقيا مرتين بعد ذلك في لقاء شعراء الجامعات، عندما ذهب ليشجعها ويصفق لها وحيداً وسط صمت واستهجان كل من في القاعة فأحرجها أكثر، وفي المرة الثالثة قررا أن يخرجا معاً.

لقاؤهما الأول كان أمام سينما جالاكسي بالمنيل، عندما قرر أن يدعوها إلى فيلم جديد، ولأن هذه أول مرة يخرج فيها مع فتاة، لم يعرف بماذا يرد على عاملة السينما التي سألته: أي فيلم تريد؟

فنظر إلى سنووايت التي هزت كتفيها ومطت شفتيها، فلم تكن قد حددت أيضاً.

ضحكت عاملة السينما في خبث، عندما رد عليها محرجاً:

ـ أي فيلم.

وإمعاناً في الخبث، وربما استمتاعاً به، سألته عاملة السينما التي

t.me/qurssan

تغطي وجهها بمساحيق أكثر من التي على وجه البلياتشو:
ـ هل تفضل الجلوس في المقاعد الأمامية أم الخلفية؟
ارتباكه جعله يعيد نفس الجملة:
ـ أي فيلم.
ابتسمت بائعة التذاكر في نصر، كاشفة عن أسنانها المكسوّة بالروج الأحمر الفاقع، فبدت له كمن انتهى من شرب نصف لتر من الدماء:
ـ كل سنة وأنت طيب.
أدرك ماذا تعني هذه المرة، فأفرغ في يدها كل العملات المعدنية التي في جيبه، وهو يمسك سنووايت من يدها متجهاً إلى الداخل:
ـ وتعود عليكِ الأيام بخير.
اختارت عاملة السينما لهما فيلم الرعب «ذات الرداء الأحمر». قاعة السينما ـ ربما عن غير قصد ـ لم يكن بها أحد سواهما وعامل كشاف الإضاءة الذي يدور حولهما كل عشر دقائق، ظناً منه أنه سيقبض على شبكة آداب. وفي الظلام الدامس وصرخات الرعب القادمة من شاشة السينما قرر أن يقول لها «أحبك» لأول مرة.
جرب طعم الكلمة في شفتيه فشعر أنها تلسعه في أطراف لسانه، فوضع يده على فمه خوفاً من أن تصيبه بأذى، حرك الكلمة في فمه، فشعر بطعمها غريباً، كأنه سكر مر، مزيج ما بين الحلاوة والمرارة، لا يعرف ما هو، لكن انشغال سنووايت في متابعة مصير ليلي والذئب جعله يتراجع عن التفوه بها، فقط شعر بالارتياح

عندما أراحت رأسها على كتفه، وهي تلقي بحبات الفوشار في فمها، كعامل يلقم مدفأة بالخشب. أغلق فمه جيداً وبطرف لسانه حرّك الكلمة حتى استقرت بين ضرسيه الخلفيين، ثم ضغط عليها، حتى همدت حركتها تماماً.

لم يكن يعرف ما الذي يتوجب عليه فعله في السينما، في الأفلام التي شاهدها يتهامس عادة البطل والبطلة حول مشاهد الفيلم، تبدو البطلة دائماً منبهرة ودموعها تسيل تأثراً بالفيلم الرومانسي، بينما يبدو البطل ذئباً ينتظر لحظة الانقضاض، أو على أقل تقدير منغمساً في أكل الفوشار، أو يقوم بحركات كوميدية لإضحاكها، لكن ماذا يفعل وهما في فيلم رعب، كادت مؤثراته الصوتية أن تحطم أذنيه.

بعدها بيومين، التقيا مرة أخرى في كافيتريا مسرح الهناجر، وشربا شاياً سيئاً، ثم قررا أن يصعدا برج القاهرة ليريا العاصمة من أعلى. وهناك رأى مرة أخرى قدراتها على التحريك.

أشارت إلى بيوت بعيدة في منطقة السلطان حسن ـ حيث يسكن ـ وقالت له إن ذلك البيت يميل ويكاد أن يسقط، ومالت بجسدها جانباً، ثم اعتدلت بصعوبة وكأنها تعاني، ليعتدل البيت مع حركتها. ثم أشارت إلى برج حمام، أعلى إحدى بنايات وسط البلد، وقالت إنه يشوه المنظر في مكانه، ثم حركت يدها بروية وحرص، كأنها تنقل كوب شاي ساخن وممتلئ من فوق رخامة المطبخ إلى الصينية، لينتقل البرج من مكانه إلى الناحية الأخرى من البناية.

مع سنووايت فعل كل ما أراد أن يفعله طيلة عمره، أمسك يدها

t.me/qurssan

وسارا معاً، شعر بخجل من يفعل هذا أول مرة، وضع يده تحت إبطيها، ورفعها لتجلس أعلى السور المحيط بدار الأوبرا وعزف لها بفمه موسيقى «رأفت الهجان»، وعلى كوبري قصر النيل وضع يده على كتفها وأشار لها إلى قريته البعيدة الممتدة عبر الأفق.

أمام أسد قصر النيل حكت له أشياء كثيرة، كان آخرها عدم وضوح معنى الحب بالنسبة لها، بدت وكأنها تضع حداً لعلاقتهما، أو تمنعه من أن يعترف لها بحبه. لكن لم يكن هذا هو سبب انتهاء علاقتهما، التي توترت بعد أن أهداها مرآة على شكل قلب في عيد ميلادها. لم تكن سنووايت تحب المرايا، حكت له صديقة مشتركة فيما بعد أنها تحطم جميع المرايا في منزلها لأنها تكشف لها حقيقتها، لذا تفضل أن ترى انعكاس جمال وجهها على صفحة نهر النيل الذي بنى والدها بيتاً عليه قبل سنوات، في إحدى قرى دمياط.

أدرك بيبو مع الوقت أن سنووايت لن تحبه، لأن الواقع والتاريخ يقول إنها تحب الأقزام، وكانت تعمل في عطلة آخر العام في مقهى شهير في مدينة نصر يديره عدد منهم، وتقضي يومها هناك تقرأ الفنجان للزبائن، ثم تطالع سريعاً صفحة الفن والأبراج في جريدة الجمهورية قبل أن تعود إلى بيتهما منهكة من العمل.

الحقيقة هي أن قلب سنووايت كان أكبر من أن يتحمله جسدها الصغير، وأكبر مما يستحقه شخص واحد، لذا كانت تجد كل

صباح في سريرها نتفاً ومزقاً من قلبها حول سريرها، أمها سألتها عن السبب فلم تجب، والدها اعتقد أن البيت مسكون، جدتها تصرفت بشكل عملي، وقررت أن تربي قطة لتأكل هذه المزق، بعد ما ظنت أنها فضلات فأر عملاق، لكن سنووايت أدركت الحقيقة، وظلت لفترة طويلة تستيقظ فجراً، تجمع ما تناثر، تضعه في صندوق صغير بخزانتها، تدرك أنه حين تكتمل النتف، سينبت لها جناحان وتطير.

ذات مرة وهي تقرأ له الفنجان على مقهى البورصة، أخبرته أنها كل مساء تخيط مكان التمزق حول قلبها، بلا فائدة، لم تلتفت إلى نظراته المُربّتة، ولم تجب على تساؤلاته التالية، ركزت في الفنجان، وأخبرته أن أمامه سكة سفر، ثم في اليوم التالي قالت له إن أمامه سكتان، وفي اليوم الثالث لم تقل شيئاً، إذ فضل أن يشرب الشاي صامتاً.

افترقا بشكل مفاجئ.لم يكن هناك سبب، توقف عن الاتصال بها، ولم تعد تبحث عن رقم هاتفه في الأجندة الزرقاء الصغيرة التي تحملها في حقيبتها. لكنه كلما جلس على مقهى، فكر في الفناجين المقلوبة على أسرار بداخلها، تنتظر من يحكيها، ويتذكر سنووايت.

t.me/qurssan

Men in Black

بعد اختفاء سنووايت، عاد إلى هوايته المفضلة: الوحدة. لا يعرف كيف قلبت هذه الفتاة حياته، فرغم أن علاقتهما لم تستمر لأكثر من فصل دراسي واحد، إلا أنها تركت وراءها ثقلاً في قلبه يجبره أحياناً على الانحناء لليسار، حتى أنه يضطر للاستناد إلى أي شيء في طريقه كي لا يسقط.

تناسى الأمر بعد أشهر، مع انتهاء دراسته الجامعية وانشغاله بالبحث عن عمل في القاهرة كي لا يعود مرة أخرى إلى الجلوس في الطابق الثاني من بيت والده يحادث الأسماك في بحيرة البرلس. تنقل لعامين بين أكثر من عمل في محلات تبيع أي شيء وشركات صغيرة أو ناشئة، حتى وجد وظيفة إدارية في مستشفى العباسية للصحة النفسية، شعر بعدها أن الحياة اكتملت بالنسبة له، وحقق استقراره أخيراً: منزل وعمل ووحدته الأثيرة.

مرت شهور وهو لا يفعل شيئاً سوى إغلاق باب غرفته عليه، ويبدأ صيد الصراصير، التي تزحم وحدته. لا يعرف من أين جاءت، ولا كيف يتخلص منها، ما يذكره أنه في البداية لمح صرصوراً واحداً صغيراً يتسكع، فظنه خارجاً من شاشة التلفزيون حيث كان يشاهد فيلم "حياة حشرة"، فقرر أن يتركه وأكمل متابعة الفيلم. في الأيام التالية تحول الأمر إلى كابوس. صراصير في كل مكان، في المطبخ، في الصالة، فوق كتبه، في سريره، لدرجة

t.me/qurssan

أنه كان يقوم بالليل مفزوعاً من أشياء تتحرك حوله، يستحضر مشهد بطل فيلم ”MIB ـ الجزء الثاني“ وهو يدهس صرصوراً، وهكذا يغمض عينيه في غيظ، ويخبط قدمه عشرات المرات في الأرض كأنه يرقص رقصة مجنونة.

لكن ذلك لم يجد نفعاً، لذا بدأ تنفيذ خطته في التخلص من هذه الحشرات المزعجة. ويمكن أن نلخص تجارب بيبو في حربه الكبرى ضد الصراصير في التالي: في البداية قرر أن يحاربها برش المبيد، لكنه اكتشف بعد مرور أسبوع، أنها تتغذى عليه، بل إنها تسير أمامه تتبختر وتتفاخر بغطاء الرش الأبيض، كأنها ذاهبة إلى حفلة تنكرية.

الخطوة التالية قرر أن يقتلها بالشبشب، كانت تلك الفترة مسلية جداً: يكون جالساً أمام التليفزيون، يلمح صرصوراً صغيراً يزحف على الحائط، فيخلع شبشبه ويصوبه نحوه، ليتلوث الحائط بدم لزج أسود. بمرور الوقت تدرب على التصويب جيداً، وفكر أن يعمل في المستقبل قناصاً أو قاتلاً محترفاً خاصة أنه بلا قلب تقريباً، لكنه تراجع بعد أن حول قتل الصراصير حياته إلى كابوس، فالحيطان امتلأت بالبقع السوداء، تذكره كلما نظر إليها بجريمته، كأنها دليل إدانته وشاهد على المذبحة التي ارتكبها في حقها. مع ازدياد الزحف نحوه، كاد الأمر يصيبه بالجنون، وأصبح يقتلها بيده، يضرب بقبضة من حديد على الصرصور الذي يزحف، فيهتز الحائط، يدهس بقدمه، يصوب لكمته إلى عين وشوارب ترتجف.

ثم قرر أن يتخذ خطوة جديدة بعد أن اكتشف أنها زحفت إلى المكان الذي يعتبره آمناً، وهو الثلاجة، ووجدها تزحف فوق خبزه، وعلب التونة والجبنة النستو، وبكثافة أكثر على أرض المطبخ، وتعد تلك الأيام بداية الحرب الكبرى التي أطلق عليها في مذكراته "الحرب العشرية"، إشارة إلى استمرارها قرابة العشرة أسابيع. خطته بسيطة وسهلة: يغلي المياه في أكبر إناء طهي لديه، ثم يسكبها على الأرض، قاصداً أن يقتلها مرتين، حرقاً وغرقاً، كان يشعر بالتشفي بعد أن يفعل ذلك، وأنه انتصر في معركة يخوضها وحيداً، يدرك أنه سيهزم فيها في اليوم التالي.

استمرت معركته مع الصراصير طويلاً بين كرٍ وفرٍ، لدرجة أنه لم يعد يذكر الوقت الذي استغرقته، ولم يكن يدرك، هل يقتلها لأنها تشعره بالتقزز أم لأنها تكسر وحدته، لكن المعركة انتهت فجأة، عندما اشتري ببغاء وجده بالصدفة في "سوق الجمعة".

نصحته زميلته في العمل أودري تاتو أن يشتري سلحفاة، بعد أن حكت عن سلحفاتها الصغيرة التي كانت تربيها وهي في المرحلة الابتدائية، ثم سرقها "الجبناء"، يسألها: ومن الجبناء؟، فتجيبه بأنهم أولاد الجيران، الذين استغلوا انهماكها في المذاكرة، وسرقوها من على سور الشرفة، بجوار نبتة الصبار.

غير أنه لم يجد سلحفاة مناسبة في السوق، وجد ثعباناً، لكنه يكره الزواحف، منذ أن كانت أمه تطلب منه أن يجلس أمام "العجين" حتى يخمر قبل أن تضعه في الفرن، ليحرسه من الأبراص والزرازير والسحالي. فيجلس كأنه يقضي عقوبة أسبوعية.

t.me/qurssan

سأل بائع زواحف: هل أجد لديك كركدن يا عم؟ فرد عليه الرجل بصوت من أنفه. وعندما ملّ من البحث، سمع من ينادي: "ميرفت.. ميرفت"، التفت إلى الخلف، لم يكن ثمة أحد سوى ببغاء، ينظر إلى عينيه مباشرة ويردد الاسم، فاتجه من فوره إلى البائع، وضع في يده ما كان في جيبه، وعاد بالببغاء الذي طلب منه أن يناديه باسم "تأبط شراً"، وإلا.

في اليوم التالي لوجود "تأبط شراً" في البيت، اختفت الصراصير، اختفى إحساسه الدائم بأن شيئاً ما يزحف على الحائط وعلى سريره وظهره، بهتت البقع السوداء على الحوائط حتى اختفت تماماً.

عادت إليه سعادته بوحدته، رغم وجود الببغاء، عاد الصمت يعم المكان لا يقطعه سوى ضجيج الحافلات التي تمر أسفل شرفته، أو صراخ سيدات على جنازة مارة، أو صوت تأبط شراً وهو يلقي بعض أبيات "المتنبي" في أوقات فراغه.

مشاهد كلاسيكية

اكتشف إصابته بالحب، ظهر اليوم التالي لرؤيته فتاة المطعم التي ترتدي بلوزة في طرفها عنكبوت. شعر بحنين مفاجئ لها، استأذن من مديره للانصراف، فأشار له إلى الباب بابتسامة واسعة.

على درجات سلم المستشفى، ابتسم عندما سمع كيت وينسلت تدندن بلحن أغنية قديمة لمحمد قنديل وهي تحمل صحيفة اليوم في طريقها إلى البوفيه، قفز باقي الدرجات إلى الخارج وهو يُحيّي أودري تاتو التي جلست على إحدى درجات الدرج وبدت منهمكة في تخطي أحد مستويات "كاندي كراش".

في ميدان العباسية، طالع الصحف دون أن يشتريها بمروره أمام أحد باعة الجرائد وقراءة عناوينها، استقل الباص، ووقف خلف السائق محافظاً على جسده من الزحام في الممر. في ميدان العتبة، قرر أن يسير حتى مطعم "الإيموبيليا" ليتناول الغداء ويتحدث معها هذه المرة، لكنه أُحبط عندما لم يجدها، ظن أن اليوم إجازتها الأسبوعية، لكن زميلتها التي كانت تناولها الأطباق بالأمس من مطبخ داخلي وقدمت له الطعام اليوم، رفعت رأسها متسائلة عندما رأت عينيه تبحثان عن شيء ما في المطعم:

ـ هل تريد ميرفت؟

لم يكن يعرف اسمها حتى الآن، لكن مفاجأة الاسم، جعلته يشد

t.me/qurssan

حمالاته إلى الخارج ثم يتركها مصدوماً:
ـ لا بد أن يكون اسمها ميرفت.
ـ تركت العمل.
تأملت عينيه المتسعتين المستغربتين، وهي تلوك علكة في فمها، قبل أن تنفخها صانعة منها بالونة صغيرة أمام فمها ما لبثت أن فرقعتها وأضافت:
ـ حسابك ٢٨ جنيهاً.
مد يده في جيبه، أخرج النقود وهو غائب تماماً عن العالم، خرج إلى الشارع، غير منتبه إلى سباب سائقي السيارات الذين يشتمونه لأنه يسير وسط الطريق ولا يهتم بأبواقهم، معجزته كانت على قيد أنملة منه، ثم فجأة ضاع كل شيء.
على مقهى عم صالح، جلس قليلاً، محاولاً أن يجمع أفكاره، أسند رأسه إلى الخلف متأملاً لافتة محل ساندويتشات «سعد الحرامي» المكتوبة بخط رديء في الجهة الأخرى، ثم أغمض عينيه، ولم ينتبه إلا حينما وجد يد عم ممدوح تهز كتفه:
ـ يا أستاذ أنت نائم من العصر، الحساب لأننا نبدل الورديات.
على الرغم من أن عبارة عم ممدوح بدت عنيفة، إلا أنه كان يتحدث برفق كأنه يخاطب ابنه الصغير الذي عاد من المدرسة مجهداً فقرر النوم قبل أن يتناول الغداء، كان هذا هو ديدنه مع الجميع، يعرف أن الجميع يتعامل معه باعتباره مجرد بائع شاي، لكنه في المقابل يتعامل مع الزبائن جميعاً باعتبارهم أبناءه، خاصة هؤلاء الكتاب، الذين يجلسون بالساعات في ركن المقهى

يتعاركون حول كلمة في كتاب، أو أفضلية كاتب على آخر. وما لا يعرفه أحد منهم ـ وإن كانوا يتفاخرون به على بعضهم ـ أنه يرسل لهم رسائل باعتباره قارئاً لهم، يتتبع الواحد منهم ـ متخفياً ـ إلى بيته ـ مهما كان بعيداً ـ حتى يتحصل على العنوان، لكن لأنه لا يجيد الكتابة جيداً، كان يكتفي بأن يضع ورقة فارغة داخل المظروف ويرسلها إلى الكاتب باعتبارها من أحد قرائه، لم يكن معنياً بماذا سيفسر الكاتب هذه الورقة الفارغة، المهم أن يقدم له دعماً نفسياً، وأن يُشعره أن هناك قارئاً له، وأن هناك جدوى لما يضيع فيه وقته، كان يفعل ذلك مع جميع كتاب المقهى، لكن المؤسف أن أحداً من هؤلاء المتفاخرين لم يذكر ولا مرة، أن رسائل القراء التي تأتيه عبارة عن ورقة بيضاء، مناقشاً دلالات ذلك مع زملائه.

فتح بيبو عينيه، فوجد ابتسامة عم ممدوح أمامه، فتمتم وهو يتمطى:

ـ أنا آسف

ربت عم ممدوح على كتفه بأبوة

ـ ولا يهمك يا بني.

ثم فرد يده أمامه محتداً:

ـ الحساب.

كان الليل قد زحف بالفعل، لا يعرف كيف نام قرابة الثلاث ساعات في الشارع وسط ضجيج السيارات، حلم أنه في مشهد طويل من فيلم ويعيد تصويره كلما انتهى، كان دوره أن يقتل

t.me/qurssan

شخصاً وعندما يفعل يتناثر الدم على وجهه، فيصرخ. يأمره المخرج ألا يصرخ حتى لا يُفسد المشهد، لكنه لم يكن يتحمل الدم الذي يبقع وجهه، فيعيد التصوير من البداية.

فرك عينيه محاولاً نسيان الحلم، وقرر أن يتمشى قليلاً لتمضية الوقت، قطع شارع شامبليون إلى ميدان عبد المنعم رياض، ثم الكورنيش، ثم كوبري قصر النيل متأملاً وجوه الأولاد والبنات المارين بجواره، والداخلين إلى حديقة الأندلس، وممثلي مسرح الهناجر، والباحثين عن دور، والخارجين من محطة مترو الأوبرا، ثم قرر أن يسلك طريقه إلى ميدان الجامعة مشياً، لمشاهدة الأفراح التي تقام هناك.

أمام حديقة الأورمان سمع صوت أوكورديون قادماً من أسفل النافورة، ورأى حوله مجموعة من الطلبة، وعروسان يرقصان معاً، وحولهم تدور خمس دراجات بخارية، من داخل الدائرة ارتفع صوت جميل بأغنية قديمة لعمرو دياب، اقترب أكثر، كانت ميرفت هناك، خلف الأوكورديون، عيناها تتسعان في سعادة وهي تغني.

عندما التقت عيناهما، اضطرب اللحن، لكنه لم يلبث أن عاد إلى طبيعته مرة أخرى، وتغير بعد أن انضم إليها، وقرر أن يغني أول أغنية خطرت على باله عندما لمحها وهي تحمل الأوكورديون، وذكره منظرها بالطفلة فيروز، وحينما انضم إليها أزاح خصلة من شعره إلى الخلف ليشبه أنور وجدي:

ـ «معانا ريال، معانا ريال، ده مبلغ عال ومش بطال».

يرقص حولها وهو يجذب الحمالات التي يرتديها، كأنه يدعوها للرقص أيضاً، كانت أول مرة يرقص، وكانت أول مرة يرقص ويغني في الشارع، وكانت أول مرة يرقص ويغني في الشارع والسماء تمطر كما يحدث في مثل هذه المشاهد الرومانسية في السينما، وكانت أول مرة يرقص ويغني في الشارع والسماء تمطر كما يجب أن يحدث في القصص الكلاسيكية، فتزداد بهجته، وبهجتها أكثر.

مع اشتداد المطر، انصرف العروسان، والدراجات النارية، والطلبة، والمتفرجون، وبقيا وحدهما، شعره يسيل على عينيه، كأنه أنور وجدي بالفعل، وعيناها تضحكان عندما تلتقيان بعينيه. سارا متجاورين باتجاه ميدان الجيزة دون كلمة واحدة، تتقارب يديهما دون أن تتلامسان، فقط تحرك ميرفت الأوكورديون، كل فترة فتبعث نغمة بسيطة مرحة، فيدور حول نفسه كأنه راقص سمسمية.

سارا وسط كوبري الجيزة المتجه إلى شارع فيصل، بعد أن ندرت السيارات بفعل المطر وتأخر الوقت، وقفا دقيقة وهما يتأملان لافتات الأطباء والمحامين في البنايات العالية حولهما دون أن ينطقا بكلمة، قبل أن يتبادلا الهواتف والإيميلات والحسابات على فيس بوك وتويتر وإنستغرام، وتشير إلى أول تاكسي.

وضعت الأوكورديون على المقعد المجاور لها، ولوحت له بيدها من النافذة، مر التاكسي سريعا فوق مياه الأمطار، أما هو فنظر إلى أعلى متأملاً ـ وربما شاكراً ـ السماء، ثم مد يده إلى حقيبة

t.me/qurssan

كتفه الصغيرة، قرفص أمامها وأخرج منها طائرة ورقية، فكها في حرص، أطلقها في السماء، انطلقت الطائرة إلى الأمام وهو يهرول خلفها، علّها تدله على الطريق.

دخل بيبو «محطة مصر»، متأملاً الوجوه التي تعبر حوله، كأنه يدخل كواليس سيرك يعرف كل تفاصيله جيداً، أبطاله منشغلون بما يفعلون ودائماً تائهون، يهرولون بعيون زائغة، يجرّون الحقائب أو يسحبون أطفالهم أو يتحدثون في الهواتف بصوت عال، بينما يبدو هو كصاحب العمل الذي يخطو بثقة ويتأمل ما يجري حوله في رضا.

يحب بيبو أن يذهب إلى هناك، يفعل ذلك كلما أراد أن يختلط بالناس ويشم روائح بؤسهم وحزنهم وحكاياتهم، يجلس على أي رصيف، متأملاً وجوه الركاب المنتظرين، ومحاولاً قراءة الحكايات التي تخفيها: هذه الفتاة يبدو أنها أنهت دراستها وستعود إلى قريتها، هذا العجوز لا بد أنه يحمل في حقيبته ملابس رخيصة اشتراها من وكالة البلح لأولاده، هذا الفتاة هربت من أهلها، لذلك تتعلق بيد ذلك الغلام كأنه أملها الأخير، هذه العيون الزائغة لهذا المراهق مهترئ الملابس تبحث من شيء ما.. بائع مخدر ربما، وهذه العجوز لا بد أنها كانت في القاهرة عند طبيب عظام أخذ منها "تحويشة العمر"، وذلك الرجل يبدو موظفاً كان ينهي أوراقاً لعلاجه من فيروس سي في وزارة الصحة، أما هذه.. فهي ميرفت.

كل الأشياء كانت متوقعة بالنسبة له، الوجوه والحكايات

t.me/qurssan

والحمالون، والأشخاص الذين يتطوعون بقص حكاياتهم، إلا ميرفت التي كانت تبادله النظرات في نفس الوقت، ابتسم وهبّ مسرعاً لمصافحتها، وهو يقول لنفسه إن الأمر يبدو حقيقياً، ثمة شيء يدفعه باتجاه ميرفت دفعاً، كأنه قدر الحب، لليوم الثالث على التوالي يقابلها في أماكن مختلفة.

قالت له إنها ذاهبة إلى الإسكندرية للقاء صديقة، والاشتراك في سباق للدراجات، وقال لها إنه ذاهب إلى إسكندرية للبحث عن مقبرة الإسكندر الأكبر. كان يكذب، وكانت تعرف أنه يكذب، وكان يعرف أنها تعرف أنه يكذب، لكنهما ابتسما للكذبة وصدقاها، وقال لها إنه حصل على أجمل صحبة سفر في حياته، وأضاف في حذر، بينما قلبه يدق كمجنون محبوس داخل بالون:

ـ يمكن أن نسافر معاً.

صمت لحظة كأنه يختبرها، ثم أضاف:

ـ إذا كان هذا لا يضايقك.

ابتسمت، وهزت رأسها بالنفي، دون أن تتكلم، فلمعت عيناه في سعادة.

أراد أن يفتح حديثاً، فسألها:

ـ هل وجدتِ عملاً آخر بعد أن تركت المطعم؟

طأطأت رأسها قليلاً، ثم رفعتها صامتة، وبعد قليل أجابت في ندم:

ـ أنا لصة

لم يبد عليه رد فعل غير طبيعي:

ـ تقصدين أنك تسرقين القلوب؟

ثم ضحك على دعابته، وعندما أدرك أنها سخيفة، ولم تبتسم لها، قطع ضحكته، واكتفى بابتسامة جامدة، فتابعت:

ـ لا بل أسرق بنس الشعر.

لم يبدُ مهتماً كثيراً بالموضوع، فأكملت بصوت بدا فيه ضيقها من تجاهل كلامها:

ـ لكني الآن وجدت عملاً في أحد مطاعم "شارع مصدق".

في القطار الخالي على غير عادته، جلسا في مقعدين متقابلين بجوار النافذة، حكت ميرفت عن حبها للجلوس بجوار نافذة أية وسيلة مواصلات تركبها: القطار، الباص، التاكسي، من هناك تستطيع أن ترى البيوت والأشجار وعواميد الكهرباء وهي تهرول هرباً، كأنها حياة قديمة تمضي إلى غير رجعة، بينما هي ترمق كل ذلك من خلف نافذتها وتتقدم كأنها ذاهبة إلى المستقبل، وحكى بيبو في عبارات قصيرة مقولات لحكماء عن السفر والغربة والأصدقاء، ثم انتقلا إلى نقاشات عامة حول الحب والأبراج والمطربين المفضلين. كان يريد أن يستمع إليها، فعادت ميرفت لتحكي عن حبها للإسكندرية، وأنها تستغل الفرصة ـ كلما سنحت ـ للسفر لتمضية يوم مع صديقات لها من أيام الجامعة هناك، وأنهن منذ فترة قررن أن يقدن الدراجات في ماراثون خاص بهن على الكورنيش. لا تفعل ما تحلم به تماما: أن ترتدي تنورة قصيرة، وبلوزة دون أكمام وتترك شعرها يهفهف خلفها، وربما تجعله ضفيرة واحدة لو كان أطول قليلاَ، وتضع سماعات

t.me/qurssan

ووكمان في أذنيها وتقود دراجة سباق كبيرة، لكنها تفعل أفضل المتاح. بنطلون جينز ليس ضيقاً، وشعرها مربوط بخيط أزرق، وجاكت صغير ينتهي عند رسغيها ودراجة عادية بالإيجار من أحد محلات سيدي بشر.

بيبو أحب الصور التي يرسمها لها في ذهنه يوماً بعد آخر، فتاة وحيدة تعمل في مطعم، تعزف الأكورديون، تقود دراجة على كورنيش إسكندرية، تحب الجلوس بجوار النافذة في القطار، وماذا أيضاً؟

في القطار أضاف الكثير إلى هذه الصور: حكت له عن أول مرة فقدت فيها واحدة من أسنانها اللبنية، وحكى لها عن جده الذي كان يخلع أسنانه بأن يربط خيطاً في مسمار في الحائط ويلفه حول سنته الضحية، ويتراجع للخلف بقوة، ثم... حكت له أنها ذهبت إلى حديقة الحيوانات لتزور الديناصور لكنها لم تجده، حكى لها عن جارته العجوز التي فقدت كل أولادها ولم يعد معها أحد يرعاها ويشتري لها طعامها من السوق سوى قطتها "حميدة". حكت له عن أنها استيقظت ذات يوم فوجدت أنها أقصر من المعتاد بحوالي ثلاثة سنتيمترات، وحكى له عن شقيقه الصغير الراحل الذي كان يتحول كل ليلة إلى سمكة، وكانت مشكلته أن في بيتهم قطة تحب السمك. لم يكن أحد يعرف السر سواه، وعندما تسأله أمه، لمذا ينام في حوض المطبخ، أو لماذا يفضل الجلوس في طشت الغسيل الممتلئ كان يقول إنه يصطاد الحيتان، حتى استيقظت العائلة ذات يوم ولم تجده، بيبو وحده

أدرك ما حدث، عندما وجد أن القطة صارت أضخم مما كانت عليه من قبل.

في القطار، نظر إلى عينيها مباشرة ثم قال، إنه لم يعرف فتاة اسمها ميرفت من قبل، ضحكت وردت على الفور: «ولا أنا»، وتفادياً للإحراج نظرت إلى هاتفها، وبحثت عبر جوجل، ثم تنحنحت وقرأت بصوت عالٍ دون أن تنظر إليه: ميرفت: اسم علم مؤنث عربي الأصل، محرف تحريفاً تركياً. أصله «مَروة» وهو حجر الصوان، وهو الحجر الأبيض البراق الذي نستطيع أن نشعل منه ناراً بقدحه بحجر آخر من نوعه. لكن العثمانيين يلفظون الواو مثل الحرف (V) في اللغة الإنجليزية، ويحولون التاء المربوطة إلى تاء مبسوطة لعدم وجود تاء مربوطة في لغتهم. فأسموا بناتهم: مرفتْ وميرفت، وأهملوا "مروة" الاسم العربي الأصيل. وقيل: أصل ميرفت "مروءتْ" من المروءة العربية، فضعَّفوا الواو التي يلفظونها «V» أصلاً.

في القطار، قال لها إنها تشبه أودري تاتو، في فيلم لم يعد يذكره، شرد لحظة ثم قال:

ـ وربما أودري هيبورن.

مدت يدها إلى بائع قبعات يمر بجوارهما، سحبت واحدة بيد، وهي تدفع ثمنها بالأخرى، ثم تنقل القبعة إلى يدها الأقرب إلى رأسه، وتضعها فوقه، وتقول باسمة:

ـ وأنت هكذا، بالبنطلون الأسود، بالقميص الأبيض والحمالات والقبعة، تشبه المجرمين في أفلام كوينتن تارانتينو.

t.me/qurssan

رد عليها على الفور، وكأنه يعيد تلاوة شيء يحفظه:
ـ هل تعرفين أن في كل أفلام تارانتينو، هناك شخص يموت برصاصة في القلب؟
مندهشة رددت:
ـ القلب!
كان يريد أن يحكي لها عن طائراته الورقية لكنه لم يفعل، وكانت تريد أن تسأله عن جواربه، لكن صافرة القطار أعلنت وصولهما إلى الإسكندرية، فسألته وهما يغادران المحطة إن كان يتدرب في صالة «كمال أجسام»، فنظر لها مندهشاً، لكن عندما رأى نظرتها الجادة، ابتسم في سره، معتبراً ذلك بداية إعجاب به، فشد حمالاته منتشياً وقرر أن يطرح عليها سؤالاً بدلاً من الإجابة: ما رأيك في ساندوتشات كبدة «أبو ناصر»؟
في الإسكندرية، رغم هطول المطر، وقفا على رمل الشاطئ بالقرب من قلعة قايتباي، وقد أمسك كل منهما فردتي حذائه بيديه، يتأملان صيادين في مركب بعيد يلقون أسماكاً في البحر. بدا المشهد كلاسيكياً، لكنه حقيقي أيضاً، هطلت السماء بعد قليل أناساً وجدهم بيبو حوله، وجوههم غير مألوفة، لكنهم ملئوا المكان بالآلاف، يمسكون أحذيتهم بأيديهم. كل شخصين متجاورين ينظران إلى البحر، كأنهم في انتظار شيء ما، لا يعرفون ماهيته، لكنهم ينتظرونه بفارغ الصبر.
سارا صامتين إلى مقهى صغير يطل على البحر مباشرة بجوار فندق «فلسطين»، لاحظ بيبو لأول مرة أنها ترتدي فستاناً طويلاً

بأكمام قصيرة، مزين بنقوش صغيرة، ولاحظت ميرفت إعلاناً صغيراً على الزجاج المجاور له، عن سيرك يقام في حديقة مجاورة، فابتسمت وهي تقول إنها لم تدخل سيركاً في حياتها.

انتهى بيبو من كوب الشاي بالحليب سريعاً، وتأملها وهي ترشف عصير البرتقال ببطء، حكى لها عن السيرك الوحيد الذي دخله صغيراً، كان في زيارة لعمه في مدينة مجاورة، فاصطحبه إلى السيرك الجوال الذي يزور المدينة. لم يكن سيركاً بقدر ما كان أقرب إلى «المولد» الشعبي، حيث الألعاب التقليدية: زق الطارة، والتنشين على البمب، والمراجيح، ورمي العملات على مربع دوار به علب سجائر كليوباترا، يربحها من تسقط عملته فوق إحداها. الشيء الوحيد الذي كان لافتاً هو تلك الخيمة المغلقة، المزدحمة بالناس، والتي يقف أمامها رجل يدعو المارة بكلمة واحدة «قرّرب.. قرّب.. قرّب»، وداخلها يقف رجل آخر على منصة عالية وإلى جواره فتاة ممددة على طاولة، يضع فوق رأسها لمبة مطفأة فتنير، ثم على صدرها وهكذا، وسط تصفيق من الجمهور.

أخطر خدعة قام بها، كما أكد الساحر لجمهوره، كانت أن يضع الفتاة داخل صندوق مغلق، ويجعلها تختفي، لكن بيبو غادر الخيمة، فلم يكن ذلك مدهشاً له. ثم نظر إلى ميرفت، وقال:

ـ أفكر أن أشاهد بقية الخدعة الآن، ما رأيك أن أدعوك إلى السيرك؟

توقف المطر، لكن ظل هواء البحر يضرب وجهيهما وهما يسيران في اتجاه السيرك، بينما يدندنان في نفس الوقت مع أغنية قديمة

t.me/qurssan

لأم كلثوم بصوت خفيض تنبعث من محل سمك في الجوار «اللي شفته قبل ما تشوفك عنيه، عمر ضايع، يحسبوه إزاي عليّ». ضاع صوت الأغنية مع ابتعادهما، فأكملاها حتى انتهت، ثم انتقلا إلى أغنية أخرى فأخرى في سلاسة ودون اتفاق، وهما يجلسان متجاورين على مقعدين في السيرك في انتظار فتح الستار.
كان الكلام قد انتهى بشكل ما، وشعرا أن الأغاني التي يرددانها معاً تجعل حبل الكلام ممدوداً، خصوصاً أنها تأتي محمّلة بطاقة داخلية تقول شيئاً ما لا يعرفانه لكنه يجعلهما ينتشيان.
في العرض الأول، ظهر رجل وطفلة صغيرة، يؤديان أكروبات صعبة، وفي العرض الثاني، قفز رجل وسط دائرة نيران، في العرض الثالث ظهر علاء الدين.
ابتسمت ميرفت، للزي المغربي الذي يرتديه الرجل، بينما عبس بيبو عندما تذكر المصباح الذي أعطاه له قبل يومين. بدأ علاء الدين عرضه بتحية الجمهور، ثم طلب شخصاً من وسط الحاضرين لمساعدته في خدعته، رفع العشرات أيديهم وهم يتصايحون، لكن علاء الدين أشار إلى ميرفت التي نظرت حولها مندهشة لأنها لم ترفع يدها، فكرر علاء الدين:
ـ نعم، أنت. ذات الفستان الجميل.
تقدمت ميرفت، مرتبكة وسعيدة في الوقت نفسه، بينما بيبو يراقب ما يحدث مدهوشاً. مال علاء الدين على أذن ميرفت، وهمس بكلمة فظهرت الدهشة على وجهها، قبل أن يبدأ خدعته.
لم يتابع بيبو ما حدث، لأنه كان يحاول ربط الأحداث ببعضها

البعض: لقاؤه بعلاء الدين، المصباح، لقاؤه بميرفت، اللقاء بين ميرفت وعلاء. هل كل هذه مصادفات؟ يؤمن أن الصدفة هي قانون الحياة. لو لم يقابل فتى فتاة في وقت محدد، لما حدثت قصة حب، لو لم يدخل الرجل الشارع في تلك اللحظة لما سقطت عليه البلكونة ومات على الفور، الحياة صدف مترابطة، يقولها لنفسه كلما حدث شيء غريب، يستخدم نظرية «أثر الفراشة» ليبرر خيباته وهزائمه على الدوام. لو لم أتأخر عن الباص لركبت الباص الآخر الذي سقط من فوق الكوبري. معنى أنني لم أنجح في الامتحان أن شخصاً آخر نجح بدلاً مني بعد أن دعت له أمه بالتوفيق، أمه كانت تنتظر نجاحه حتى تذبح ديكاً وتغيظ جارتها، جارتها أرملة وحيدة لا تجد عملاً، وسيدفعها هذا للبحث عن عمل، ستعمل عند رجل طيب، الرجل مزواج وسيخطط للزواج منها، لكنها ستدس له السم، وترث مالاً كثيراً، ستقابل فتى أصغر منها بعشرين عاماً ويتزوجها، سيستغلها ويسرق نقودها ويطلقها.. وهكذا تستمر المصادفات والحكايات، التي يخلقها ليقنع نفسه بفائدة أو مغزى عدم نجاحه في الامتحان.

أفاق بيبو على تصفيق الجمهور، وعودة ميرفت إلى جواره مقطوعة الأنفاس، علامات الانبهار واضحة على وجهها، قالت وهي تلهث:

ـ طوال عمري كنت أتمنى أن تحدث في حياتي معجزة. هذا يكفيني لبعض الوقت.

قبل أن يسألها ماذا حدث، أخبرته أنها تأخرت عن صديقاتها

t.me/qurssan

ويجب أن تغادر. أمام السيرك صافحها بقوة، وقالت له إنها سعيدة لأنها قضت اليوم معه، وقال لها سيهاتفها عقب عودتها إلى القاهرة. أخبرته أن بعد غد عيد ميلادها، وهو أول أيام عملها الجديد، وأن الحياة ستبتسم لها مجدداً، ثم ابتسمت وهي تغادر بينما وقف يراقبها تبتعد وقلبه يدق يدق.

في القطار العائد للقاهرة، ابتسم لرسالة منها على هاتفه: «شكراً على هذا اليوم الجميل»، رد على الرسالة بإيموجي سعيد، ثم أسند رأسه إلى الوراء متأملاً الحقائب المكدسة على الأرفف. أغمض عينيه، وراح في النوم.

لم يعد بيبو مهتماً بالإجابة عن تساؤلات "تأبط شراً"، ولا بالحديث معه، حتى في اليوم الذي انفعل فيه الببغاء عليه، وغادر قفصه، صارخاً

ـ يا أخي حرام عليك، تعبت، ماذا فعلت لك؟

لم يستطع بيبو أن يرد عليه، لم يستطع لأنه لم يفهم مم يشكو، فهو يوفر له كل شيء، لكنه لم يعد بمقدوره أن يجلس ويتحدث معه أكثر، لأنه يفكر في ميرفت طوال الوقت. يشعر أن شيئاً لا يدري كنهه يسيطر على كل تصرفاته ويسيّره في هذا الاتجاه، أم لعله قلبه عاد لينتقم منه.

ذات مرة كان يهاتفها وهو واقف أمام مبنى المستشفى، متحدثاً معها عن سبعة فوارق بين ديفيد لينش وديفيد فينشر، وبعد أن أنهى مكالمته، فوجئ بكيت تمر أمامه وتبتسم:

ـ يبدو أنك تحب؟ من التي كنت تكلمها؟

غضب لأول مرة من كيت، وقال مرتبكاً:

ـ أبداً، إنها أمي.

ضحكت كيت:

ـ لا تتضايق، كنت تبدو سعيداً وأنت تتحدث، وجهك ينبض بالحياة، وعيناك تلمعان.

لم يغضب من كيت لأنها كشفته، بل غضب من نفسه لأنه لم

t.me/qurssan

يستطع كتم الحب داخله، وأصبح يفضحه أمام الجميع، حتى أنه أصبح ينادي زميلاته في العمل باسم ميرفت، فيرفعن أعينهن إليه بدهشة وخبث، فيعتذر بأن هذا اسم عمته التي كان يهاتفها منذ قليل، وهو ما اضطره أن يلتزم الصمت أكثر، وإذا تحدث يكتفي بإشارات بسيطة دون أن ينادي باسم محدد.

متى تفاقم الأمر هكذا، هل منذ قابلها أول مرة في مطعم الإيموبيليا؟ منذ صادفها أمام جامعة القاهرة؟ منذ التقيا في القطار المتجه للإسكندرية؟ لا يذكر، لكنه يذكر أن قدمه علقت في الفخ بعد أن عاد من الإسكندرية، في اليوم التالي استيقظ من النوم، وهو يشعر بثقل على كتفيه، نظر إليهما، اليمين ثم اليسار، فوجد الملاكين الصغيرين - اللذين رآهما من قبل - يغفوان، لم يشأ أن يزعجهما، نهض بحرص حتى لا يسقطان، لكنهما اختفيا بمجرد أن اعتدل، ألقى تحية الصباح على تأبط شراً، الذي لم يرد عليه وظل يتمتم بأبيات للمتنبي قالها في هجاء كافور الإخشيدي. في طريقه إلى العمل فكر أنه لو عثر على حذاء ميرفت لصار بإمكانه أن يعرف الأماكن التي تذهب إليها، وعاش حياتها وهل تفكر فيه بالمقابل أم لا.

كل من رآه في العمل علّق على سعادته، وحدها أودري تاتو ابتسمت ابتسامة واسعة ولمعت عيناها دون أن تقول شيئاً.

بحث على الإنترنت عن أفضل هدية يمكن تقديمها في أعياد الميلاد، فلم يجد سوى نصائح بالدمى والشيكولاته وبراويز الصور والورود والفراشات المجففة، أو الملابس وأطقم الأكواب

وغسالات الأطباق ـ لو كان الأمر يتعلق بالأم ـ. بعد أن أنهى عمله بحث بنفسه في محلات الهدايا، لكنه لم يجد شيئاً مناسباً أيضاً يليق بميرفت. هو لا يعرف اهتماماتها بعد، لكنه في نفس الوقت يريد أن يهديها شيئاً غير اعتيادي.

في صباح اليوم التالي، اتصل بإتش وطلب منه أن يوقع بدلاً منه في كشفي الحضور والانصراف، لأنه مريض ولن يستطيع الذهاب إلى العمل، ولم يرد عليه عندما سأله:

ـ سلامتك؟

فقط غمغم بشيء لم يفهمه هو نفسه، وهو يغلق الخط. لكنه لم يكن متعباً، بل سهر الليل كله يفكر في الهدية المناسبة لميرفت. قلب عينيه فيما حوله. بالتأكيد لن يهديها تأبط شراً، بالرغم من الخلاف الفكري والأيديولوجي بينهما، أما الملاكان فيظهران على فترات متقطعة، وسيكون من الصعب الإمساك بهما أو انتظار ظهورهما. لن يهديها الطاولة ولا الثلاجة ولا الراديو ولا قطرة العين الخاصة به، ولا كيلو الطماطم الذي اشتراه أمس، ولا طائرة ورقية فضلاً عن أنه توقف عن صناعة طائرات جديدة منذ انشغل بها.. أما هذا الشيء الذي يضعه فوق التلفزيون فهو: "أمانة علاء الدين".

فكر للحظة أن حكاية علاء الدين تبدو غريبة قليلاً، ولا يصدق أنه سيقابله مرة أخرى. ربما يكون رجلاً مجنوناً، وربما تكون مجرد مزحة من شخص لا يعرفه، وعلى أقصى تقدير مقلب من أحد برامج الكاميرا الخفية. وحتى لو كان الأمر حقيقياً، فهو

t.me/qurssan

يشعر أنه عندما يعطي المصباح لميرفت سيقدم خدمة للمؤلف، لأنه يغلق دائرة نصف قطرها في السيرك، وستتعقد الحكاية أكثر، وتصبح لديه مبررات درامية لخلق مستويات أخرى من السرد.

وهكذا، وضع المصباح في شنطة صغيرة أنيقة مكتوب عليها "التوحيد والنور"، بعد أن لفه في ورق هدايا كان موجوداً لديه من هدية تلقاها قبل سنوات من سنووايت، واتجه إلى شارع مصدّق بحثاً عن المكان الذي تعمل فيه ميرفت.

لم يكن يعرف اسم المطعم، لذا اضطر أن يدخل كل مطعم من أول الشارع ليسأل عليها، حتى وجدها في هارديز، تضع طبقة من الجبن الساخن فوق شطيرة برجر.

ـ كيف عثرت عليّ؟

ضحكت، ثم خبأت فمها، واتسعت عيناها عندما ناولها الهدية الصغيرة:

ـ فانوس؟

ابتسم رداً على سؤالها الجاد، فيما خلعت ملابس العمل، وطلبت من زميلتها أن تغطي غيابها ثلاث دقائق، وفي شارع جانبي شكرته، وقالت له إنه بهذا الشكل سيفضحها، لأنه غير مسموح للعاملين في المطعم أن يأخذوا هدايا من العملاء.

طرأ على ذهنه الإفيه، فقاله على الفور:

ـ أنا لست عميلاً، أنا جاسوس.

ضحكت مرة أخرى فبانت غمازتاها الخفيفتان، شكرته ثم عادت

إلى العمل، فيما واصل طريقه مشياً في شارع محيي الدين أبو العز حتى نادي الصيد، سعيداً ومنتشياً لأنه أبهجها، وساخراً من "نكتة" مصباح علاء الدين.
لكنه لم يدرك أن "النكتة" قلبت حقيقة إلا بعدها بأيام، عندما سمع صوت الجالس بجواره على مقهى "عم صالح" وهو يقرأ عناوين الصحف بصوت عالٍ مستنكر، وحين التفت إليه، كان علاء الدين ينظر إليه، وكأنه فعل ذلك للفت انتباهه.
للحظة ارتبك، ثم ابتسم محرجاً، عندما سأله:
ـ لماذا ينادونك "بيبو"، رغم إن اسمك الحقيقي طارق السيد؟
حمد الله إنه لم يسأله عن المصباح، وإن امتعض قليلاً أن الرجل يعرف اسمه الحقيقي، فأجاب وهو يتهيأ للانصراف:
ـ أبي كان يحب لاعب الأهلي محمود الخطيب، ويوم مبارة اعتزاله كنت طفلاً، وظللت أردد مع الأطفال في الشارع والمدرسة والبيت الأغنية التي انتشرت وقتها لوداعه: "بيبو.. بيبو .. يا سلام يا خطيب"، يمكنك أن تجدها على يوتيوب، ومن هنا بدأ اللقب.
هز علاء الدين رأسه فاهماً، وقال مبتسماً، وهو يرفع عينيه إلى أعلى كأنه تذكر شيئاً:
ـ أنا أيضاً، زمان كنت أحب أحمد الكاس، يااه.. أيام.
سأل بيبو:
ـ وهل أسموك على اسمه؟
هز رأسه نافياً، ثم قال في جدية وهو يلتفت بكامل جسده إلى بيبو الذي يجلس على حافة الكرسي ليعطيه إيحاء بأنه ينوي

t.me/qurssan

الرحيل:
ـ تذكرت الآن حكاية يحبها المؤلف، ويرددها دائماً، جاءت على لسان أحد أبطال فيلم "سينما باراديسو"
وقبل أن ينطق بيبو تابع:
ـ "في أحد الأيام أقام الملك حفلة حضرتها أجمل الأميرات في المملكة. أحد الحراس، وكان يدعى باستا، رأى ابنة الملك. كانت أجمل الموجودات فوقع في حبها، لكن ماذا يفعل جندي فقير مع ابنة ملك؟ في يوم من الأيام دبّر لقاءً معها. وقال لها إنه لا يستطيع العيش بدونها. تأثرت الأميرة بشدّة من عمق مشاعره، لدرجة أنها قالت له: إذا بقيت منتظراً مائة يوم ومائة ليلة تحت شرفتي، فسوف أكون لك في النهاية، بحقّ الله. ركض الجندي بعيداً، وانتظر يوماً، يومين، عشرة، عشرين. كل ليلة كانت الأميرة تنظر إليه من الشباك، لكنه لم يتزحزح. جاء المطر والريح والثلج. تبرزت الطيور فوقه، وأكله النحل حياً، ولم يتزحزح. بعد تسعين ليلة أصبح سقيماً شاحباً، والدموع تجري في عينيه لكنه لم يستطع إيقافها. لم يعد يمتلك القوة لينام. وطوال هذه المدة كانت الأميرة تراقبه، في الليلة التاسعة والتسعين، هب الجندي واقفا، حمل كرسيه وغادر المكان".
صمت علاء الدين، فسأله بيبو:
ـ ثم
قال علاء الدين، وهو يعدل نظارته التي غيرّ زجاج عدساتها:
ـ لا شيء. فهكذا انتهت الحكاية.

ـ حسناً، لكن المعتاد أن هناك تكملة، مبرر، نهاية سعيدة.
ـ ولماذا اعتدنا على ذلك؟ ولماذا يجب أن يكون لقبي أحمد الكاس، لأني أحبه، لماذا يجب أن تكون هناك نهاية تقليدية للحكايات.
فكر بيبو، ثم رد محتداً:
ـ لأن.. لأن هذه طبيعة الحياة.
ظهر فراغ مكان سنة مكسورة في ناحية فم علاء الدين اليسرى وهو يبتسم ساخراً:
ـ طبيعة الحياة يا صديقي أنه لا نهاية لها. النهاية تسعدنا لأنها تجعلنا نصدق أن كل شيء سينتهي على خير، كي نستطيع أن نبدأ من جديد، لكن هذا في الأفلام والروايات فقط. الحياة لا تعمل بهذه الطريقة، لأنها تستمر بعد موت الشخصية الشريرة، أو زواج العاشقين، أو انتحار المجرم، يمكنك أن تأخذ قطعاً من الحياة وتقول هذه حكاية، لكن الحقيقة أن لها هوامش، وحواشٍ وأطراف تكملها، الموت هو النهاية الحقيقية الوحيدة.
ثم أشار إلى الناحية الأخرى من الشارع:
ـ انظر إلى هذه البناية المقابلة. يسكنها عشرات الأشخاص، كل واحد منهم لديه حكاية تتضافر وتتقاطع مع عشرات الأشخاص الآخرين، الذين تتقاطع حيواتهم مع عشرات غيرهم وهكذا، دوائر لا تنتهي.
صمت علاء الدين لبعض الوقت، مد خلاله يده وداعب العصفور النائم في جيبه، وأكمل:
ـ تأمل حياة عم ممدوح بائع الشاي، مجرد دوائر متتالية

t.me/qurssan

متقاطعة، أحدهم يطلب شاياً، يذهب لإحضار الشاي، يعود ليأخذ الحساب، وهكذا، بشكل دوري مع كل الزبائن. يومه كله دائرة كبيرة بها مجموعة دوائر صغيرة، يستيقظ، يذهب إلى العمل يعود للنوم. حتى يوم الإجازة دائرة أخرى بالنسبة لبقية الأيام، الزواج والإنجاب دائرة بالنظر إلى حياة البشر، قصص الحب دوائر متقاطعة ما بين الرجل والمرأة، قد تكتمل هنا ولا تكتمل هناك.

صمت قليلاً متأملاَ بيبو:

ـ لا تتوقع نهايات تقليدية في الحياة يا بيبو، حتى لو كنت بطل رواية.

ثم وضع يده على كتفه، وقال ببهجة.

ـ أعرف أنك مشغول، لكني أريد أن أبشرك بخبر سعيد.

ظن بيبو أنه سيحدثه عن ميرفت، فسأله متلهفاً:

ـ خيراً؟

أجاب مبتسماً:

ـ سامحت زوجني والجني، اكتشفت أنه لا فائدة من الغضب.

وقبل أن يجيب بيبو، نهض علاء الدين قائلاً:

ـ سأسافر اليوم، وأعود بعد أسبوع، سأنتظرك هنا، لا تنس أن تحضر المصباح معك. سلام.

كما ظهرت ميرفت في حياته فجأة، اختفت فجأة. فلمدة أسبوع، لم يسمع بيبو سوى "الرقم الذي تطلبه غير موجود في الخدمة" كلما جرب الاتصال بها، حتى عندما ذهب إلى المطعم الذي تعمل به أخبره زملاؤها أنها لم تأت منذ أيام.

كان يشعر بألم عميق لا يعرف كنهه، يتعدى الألم الجسدي، يدمر ذاته ويفتتها إلى جزيئات صغيرة تتفتت إلى جزيئات أصغر. فكر أن يتصل بـ"الطبيبة المريضة"، خاصة أنه نسي خلال الأيام الماضية، بعد أن شُفي قلبه، أن يهاتفها ليشكرها.

لن يقول لها طبعاً إن "وصفتها الطبية" هي السبب في التضخم الذي أصاب قلبه، حتى بدأ في البروز أمامه يوماً بعد يوم وجعله يبدو كأحدب نوتردام معكوس، وأصبح يضطر لأن يرتدي معطفاً كي يخفيه، أو يحمل حقيبة ضخمة على كتفه، كي تخفي الشكل الغريب لجسده، لكنه سيخبرها أن علامات مرض الحب بدأت تظهر في شكل بقع قاتمة على جسده، تذكره بالعلامات السوداء للصراصير الميتة على الحائط.

مكالمة قصيرة كعادته. لا تتعدى الدقيقة، قال فيها كل شيء تقريباً، ثم اتفقا أن يلتقيا في مقهى "ستراند" بباب اللوق. بعدها بنصف ساعة نزل من الحافلة في ميدان التحرير. قطع الأمتار الباقية حتى المقهى عدواً، رغم أن موعدهما بعد ساعتين،

t.me/qurssan

اختار منضدة بمقعدين إلى جوار النافذة التي تطل على الشارع، وجلس يتأمل وجوه الناس المكفهرة، أو هكذا بدت له، مترقباً ظهور الطبيبة المريضة، حتى قطعه صوت قادم من داخل المقهى:

ـ فيم تفكر؟

التفت فوجدها أمامه، تستند إلى عكازها المعدني وقد ربطت أعلاه خيطاً وردياً. ردت على سؤال عينيه مباشرة:

ـ جئت من شارع خلفي.

يعرف أنه لا يوجد شارع خلفي، ولا طريق إلى المقهى إلا ذاك الذي كان يتأمله، لكنه تغاضى عن ذلك، وهو ينادي عامل المقهى، ويشير بإصبعين:

ـ قهوة سادة في فنجان.

ما إن جلست الطبيبة المريضة، واضعة عكازها على المقعد المجاور لها، حتى أسند رسغيه على الطاولة أمامه، ومال للأمام محدقاً في عينيها خلف النظارة الطبية.

ـ طبيبتي المريضة

ـ مريضي الوحيد

حكى كل شيء، حتى ما لم يتخيل أنه قد يحكيه يوماً، صارحها بأن كل ما أراده حين لجأ إليها، أن يشعر بقلبه حياً داخل جسده، لا أن تتحول حياته إلى مجرد تابع لهذا القلب.

صامتة أخذت تتأمل ملامح وجهه العابسة، الحائرة ربما، حتى توقف تماماً عن الحكي. لم يكن يعرف هل انتهى، أم أن بطارياته نفدت أم تعب. فقط وجد نفسه يلهث بشدة، ناولته كوبي ماء من

أمامها، فشربهما الواحد تلو الآخر، ثم قالت:

ـ اسمع يا بيبو.

وبدأت جملة طويلة، أطول من مسافة المقهى إلى بيته.

لم تتكلم عنه، بل تكلمت عن نفسها، عن قصتي حب فاشلتين مرت بهما. الأولى: زواجٌ بالرغم منها، لأن العائلة والتقاليد والأعراف تقول إن على البنت أن تتزوج عندما تبلغ سناً معينة، فإذا لم يكن ابن العم موجوداً، أو قدم طلباً لحجزها، فإن أول ابن حلال سيمر من أمام البيت ستكون من نصيبه. لحسن ـ أو لسوء حظها ـ تزوجت من ابن عمها الذي يكره مهنة الطب، ورغم أن عملها اقتصر على الذهاب إلى مستشفى القرية المجاورة إلا أنه كان يريدها له وحده فحسب. قصة الحب الصغيرة التي أرادت لها أن تنمو لتمضية الأيام وتزجية الوقت، وئدت سريعاً، وخرجت منها بجرح كبير، في قصة حبها الثانية قررت أن تختار هي ابن الحلال. اختارت كائناً من كوكب آخر. شخص وسيم خجول، يكلم النباتات، ويصادق أزهار البنفسج في الحدائق العامة. مع زحف العمران، وتضاؤل الرقعة الزراعية بدأت ملامحه تبهت. لاحظت ذلك في مواسم الحصاد عندما كان يتلوى من الألم مع صوت كل ماكينة تحصد القمح أو منجل يهوي على أعواد الذرة، أو يد طفل تقطف لوزة القطن. لكنها كانت تقول إنه سيتعافى بعد زراعة الحقول من جديد، لكن مع هجرة الفلاحين أراضيهم وشح المياه، وتناقص الحدائق العامة كان يتضاءل بالموازاة، ويبهت حتى صار شبحاً ثم اختفى تماماً. هل تصلح

t.me/qurssan

هذه كقصة تعليمية؟ هل تصلح لبرنامج "سر الأرض"؟ أو لإعلان لوزارة الزراعة عن خطورة التصحر وتجريف الأراضي؟ ربما، لكنها في النهاية خسرت جزءاً آخر من قلبها.
الآن فقط أدرك بيبو، لماذا تُسمى "الطبيبة المريضة"، الأجدر بها أن تحمل اسم "الطبيبة المريضة بالحب"، لم يستطع رغم ذلك أن يبدي تعاطفاً معها، لأنه كان يريدها أن تنهي حكايتها حتى تعود إلى أزمته، وتخبره ماذا يفعل.
ماذا يفعل في نتوء صدره، في لمعة عينيه التي تفضحه في كل مكان، في الاتصال الذي ينتظره من ميرفت ولا يجيء، في المكالمة التي لم يكن يريد لها أن تنتهي معها، لم يقل يوماً لميرفت أنه يحبها، هي أيضاً لم تقل له شيئاً، لكنه يشعر بذلك، ولا بد أنها تشعر بذلك أيضاً. ليكن صريحاً مع نفسه، هو لا يعرف إذا كانت ميرفت تحبه أم لا، في آخر مكالمة بينهما، قالت له إنها لم تتمن صديقاً في الدنيا أفضل منه، هل كانت تمزح أم تتحدث بجدية، هل تعتبره مجرد صديق لا أكثر، أم أنها جملة عادية، حولها إلى عبارة تقرير مصير.
قال للطبيبة المريضة إنه أصبح يكره الحب، يريد أن يتخلص منه ولا يعرف كيف. كان ينتظر حلاً سحرياً منها لكنها ظلت صامتة.
قال لها إنه حاول أن يخلع قلبه من صدره كما فعل في المرة السابقة لكنه لم يستطع، بدا كأنه تم تثبيته بمسامير من فولاذ إلى باقي جسده، ولم يجن من تلك المحاولة إلا المزيد من الألم والدقات والافتقاد.

لم تجبه الطبيبة المريضة حين أعاد عليها نفس الأسئلة والحكايات مرة أخرى، إلا بأن أمسكت فنجان قهوته الفارغ وقلبته في الطبق، وظلت صامتة قليلاً، قبل أن ترفعه، وتمسح حوافه بطرف إصبعها، وتشير إلى الداخل قائلة:

ـ انظر.

مد رأسه إلى الأمام، ونظر إلى داخل الفنجان فلم يجد سوى تعاريج القهوة:

ـ ماذا يقول؟

هزت رأسها في أسف لعدم فهمه:

ـ أنت تعاني.

أدارت الفنجان في يدها، قبل أن تضعه في الفنجان مقلوباً مرة أخرى:

ـ أمامك سكة سفر.

طالبته بالصبر والنسيان. قالت إنه لا يمكن أن يستمر في حب أحد لا يحبه. لكن بدت الكلمات له مجازية وشديدة التفاهة، لا تستطيع حتى أن تصف جزءاً من معاناته، فهز رأسه يائساً:

ـ لا أعرف ماذا أفعل

قالت بلهجة مُربّتة:

ـ ابتعد عنها، هذا أفضل لك.

صرخ فيها:

ـ أخشى أن تكرهني لو فعلت هذا، لا أريد أن أخسرها، لا أريد أن..

t.me/qurssan

فكر للحظة أن ميرفت لا تهتم بذلك، لأنها لا تعرفه جيداً، ثم كيف سيخسرها وهو لا يجدها من الأساس.

ـ أقصد..

ابتسمت الطبيبة المريضة متفهمة:

ـ المهم ألا تخسر نفسك، ماذا ستستفيد لو ربحت العالم كله وخسرت نفسك.

لم يحدثها عن مشاكله الأخرى: المصباح الذي أهداه إلى ميرفت، علاء الدين الذي ينتظر مصباحه، تأبط شراً الذي وجده ذات صباح يضع رأسه في حبل متدلٍ من قفصه راغباً في الانتحار، فأنقذه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه فقد قدرته على الكلام. وهو عائد إلى منزله، بدا الطريق طويلاً لا ينتهي، هاتف "الطبيبة المريضة"، وقال لها وهو يكاد أن يبكي:

ـ أنا بالفعل لا أعرف ماذا أفعل.

صمتت الطبيبة المريضة طويلاً، ثم قالت:

ـ هناك طريق واحد.

تسارعت دقات قلبه، قفز من الحافلة التي كانت تعبر مسرعة شارع حسن الأكبر بجوار قصر عابدين، فسقط على وجهه، نهض متألماً وسار على الرصيف ببطء شديد، وعيناه تمسحان الأرض، ثم سأل:

ـ أي طريق.

أكملت بعد فترة صمت، وكأنها لم تسمعه:

ـ هناك طريق واحد إذا اخترته، ستتخلص من قلبك إلى الأبد.

ظهور خاص

لليوم السابع على التوالي، يذهب بيبو إلى مقهى عم صالح في شارع شامبليون، يتأمل الوجوه بتمعن، لكنه لا يجد علاء الدين.
لم يكن هناك شيء مختلف عن كل مرة، يكاد يعرف الموجودين بالاسم، يحفظ ملامحهم وملابسهم ومشروباتهم المفضلة، كافكا يجلس في ركن المقهى، وأمامه فنجان قهوة وكوب شاي وعبوة سبرايت وأوراق كثيرة فيما هو مستغرق في تأليف كتابه الجديد "الإفيه في فن الترفيه"، ولد يحكي لبنت في الطاولة المجاورة عن حلمه بأن يصبح مثل أنيس عبيد، يكتب اسمه في نهايات الأفلام الأجنبية على القناة الأولى، بينما البنت مشغولة بضبط مكياجها متطلعة إلى مرآة صغيرة مشروخة في يدها. عم ممدوح يحكي لسمكري سيارات مجاور للمقهى، وهو يناوله كوب قرفة باللبن، عن نجوم السماء التي يراقبها كل مساء بتلسكوب اشتراه من بائع روبابيكيا، صاحب عربة الفول يمسك سكيناً ويطارد ذبابة في الشارع كانت تحوم حول رأسه، عم صالح يتأمل صورته على جدار المقهى وهو يسلم مبتسماً على رئيس الحي الذي ينظر للناحية الأخرى في غير اكتراث.
لا شيء يختلف عن المرات السابقة، حتى بيبو يجلس في المكان نفسه، الذي قابل فيه علاء الدين من قبل، وفي نفس الوقت يرتب في رأسه الردود التي سيواجه علاء الدين بها، بعد أن قرر

t.me/qurssan

أن يعترف له بكل شيء، وليفعل ما يفعل.
قرر أن يواجهه بالحقيقة، فهو لن يستطيع أن يستعيد المصباح من ميرفت، كيف يقول لها: اعطني هديتي التي منحتها لك، فضلاً عن أنه لا يعرف أين اختفت. كان في قرارة نفسه يدرك أنه لا مفر، لن يظل هارباً للأبد، سيعطيه ثمنه وينتهي الأمر، ولن تنطلي عليه خدعة المصباح والجني وهذا الكلام الفارغ، إنه مجرد فانوس صيني، وربما يكون سعره أرخص بما أن شهر رمضان لم يأتِ بعد.
كل يوم بعد انتهاء دوامه في العمل يجلس نفس الجلسة، أسفل الشجرة، وجهه إلى الشارع، يراقب المارة، يرمق القادمين من ميدان عبد المنعم رياض، والذاهبين من ميدان طلعت حرب من الناحية الأخرى. يطلب ساندويتشي الفول، وكوب الشاي، وينقل بصره ما بين هاتفه والشوارع المحيطة.
خبطتُ على كتفه، وأنا أقول مازحاً كمن يكلم صديقاً
ـ هل تنتظر أحداً؟
التفت إليّ بحدة لم أتوقعها:
ـ هل تعرفني يا عم؟
قلت وأنا أسحب كرسيا، مكتوب على ظهره «كافيتريا حسن»، وأجلس بجواره:
ـ أنا محمد أبو زيد، أنا المؤلف
تمتم بكلمات لم أتبين حروفها كاملة، لكني أستطيع أن أتوقعها:
ـ مؤلف على نفسك، وليس عليّ.

تأملت قليلاً وجوه المارة في الشارع، متوقعاً مرور أحد أعرفه، قبل أن يأتي عم ممدوح، ويسألني:

ـ اؤمر يا باشا؟

ـ شاي سكر خفيف لو سمحت.

بعد فترة صمت طالت قليلاً، التفت إليَ وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة:

ـ ماذا تفعل هنا أصلاً؟ أنت تذكرني بظهور السبكي* في أفلامه.

لم أبتسم للإفيه، فتابع:

ـ لكن كن مفيداً لي في أي شيء، أنت مثل أبي، أخبرني ماذا أفعل؟

نظرت إليه ملياً، وقلت بحكمة:

ـ ما المسؤول بأعلم من السائل.

نظر إليَّ بيبو باستنكار، ثم قام فجأة منصرفاً، وهو يتفتف:

ـ «الراجل ده عبيط ولا إيه؟».

هززت رأسي بأسى وقلت:

ـ مسكين.

---

*الحاج السبكي (١٩٦٢ـ ....): مؤلف ومصور ومنتج ورسام وعازف جاز، مخرج سينمائي مشهور، حصل على ثلاث ترشيحات للأوسكار، حاز السعفة الذهبية بمهرجان كان عن مجمل أعماله، وتوجد نجمة باسمه في ممر النجوم بهوليود، يعتبره النقاد من أهم علامات السينما العالمية، وله فيلمان في قائمة أهم مائة فيلم حول العالم، ولد في بولندا لأبوين يعملان في مهنة التعليم، قبل أن ينتقل إلى كاليفورنيا، أغرم بالسينما منذ صغره، وبدأ حياته الفنية بمشاهد بسيطة في الجزء الثاني من فيلم العراب، ظهوره الاستثنائي في فيلم «أيظن» رشحه لأول أوسكار مساعد في حياته، ثم توالت أعماله وترشيحاته للجوائز، يعد أول من أدخل «التوك توك» في السينما المصرية.

t.me/qurssan

الفصل الثاني

فتاة

t.me/qurssan

هل كانت طويلة؟
هل فُوجِئَتْ بذلك؟
وهل لما رأت السحابات قريبة منها
هدَّدَتْ بالغناء؟

قوم جلوس حولهم ماء ـ ٢٠٠٦

لم تحب ميرفت شيئاً في حياتها مثل العناكب والقطط الضالة والتماسيح وآثار الأقدام الحافية على الرمال ومشاهدة الكتاكيت الصغيرة، وبنسات الشعر الملونة.
لم تستطع أن تقتني تمساحاً في البيت لضيق المكان، فرتبت الأركان بيوتاً آمنة للعناكب. تدق على أبواب شقق الجيران وهي تمسك في يدها ممسحة الجدران، تقول لهم وهي تقطر خجلاً: هل من الممكن أن أنظف الجدران؟، وقبل أن يجيب أحد تكون قد أصبحت داخل الشقة بالفعل، ترفع عصاها إلى ركن الحائط، وتلفها بحرص حول بيوت العناكب الموجودة. وعندما لا تجد تهز رأسها آسفة مصدومة وتغادر من دون حرف واحد.
"الفتاة الطيبة، التي تحب النظافة بجنون، لدرجة أنها تنظف جدران جيرانها"، هكذا يلقبونها. ينطقون الجملة هكذا مرة واحدة دون نسيان حرف أو تقديم كلمة على الأخرى، لكنهم

t.me/qurssan

لا يعرفون أنها تخرج بسرعة من منازلهم، ليس تأدباً فقط، أوحرجاً من الفانلات الداخلية التي يرتديها الأزواج، لكن خوفاً على العناكب من الموت. تدلف بسرعة إلى غرفتها، تقرفص على الأرض، وتخرج العناكب من طرف المنفضة، وقد تضمد ذراع أحدها، إذا كان قد أصيب، وهي تعتذر له، ثم تضعه في مرطبانات بلاستيكية أعدتها لهذا الغرض.

وحتى لا يقول أحد إن ميرفت تقتل أو تسجن العناكب، أرد بثلاث توضيحات؛ الأول: أنها حاولت اختراع آلة لالتقاط العناكب من الأركان دون أن تؤذيها إلا أنها لم تستطع تشغيلها. الثاني: أنها فشلت في أن تحصل للآلة على براءة اختراع لها من أكاديمية البحث العلمي. الثالث: أنها تترك المرطبانات ليلاً مفتوحة، لأي عنكبوت يريد أن يخرج للتريّض.

أما بنسات الشعر الملونة، التي لا تحب أن تضعها في شعرها، فقد ملأت بها مرطباناً كبيراً، كما صنعت منها خريطة كبيرة للعالم على حائط غرفتها، كل دولة بلون، تقف لتتأملها كل يوم، وتقرر أن تزور دولة جديدة بلون جديد، فتبدأ البحث عن المزيد من البنسات لتملأ مكانها على الخريطة.

ميرفت لا تملك الكثير من المال لتنفقه على هوايتها، لذا تلجأ أحياناً لأن تمسك أعلى بلوزتها بيدها، وتوقف فتاة صغيرة في الثانوية العامة عائدة من درس الرياضيات، ثم:

ـ ممكن بنسة؟ زر البلوزة سقط مني.

وقبل أن تمد الفتاة يدها إلى حجابها، تكمل ميرفت:

ـ أريد الزرقاء.
لكنها، والله، ليست لصة، لم تمد يدها إلا مرتين فقط، أقصد ثلاثة، إلى بنسة ملونة في شعر الفتاة التي جلست أمامها في الحافلة.
ميرفت لا تحب السرقة، لذا اتصلت بالشيخ الملتحي الذي لا تعرف اسمه، لكنه يظهر أسبوعياً على قناة "دريم"، لتسأله عن حكم السرقة في لعبة "المزرعة السعيدة" على فيس بوك. لم يفهم الرجل الذي لا يعرف كيف تكون السرقة الإلكترونية، ولم يستوعب شرحها أن هذا جزءاً من آلية اللعبة، أي أن تسرق من مزارع جيرانك كي تستطيع أن تشتري بذوراً جديدة، وأن هذه سرقة متبادلة. اليوم تسرقني وغداً أسرقك. الرجل الذي يحاول أن يبدو وقوراً ظن أنها تسخر منه، فأغلق المعدون الهاتف في وجهها، عندما رأوا عروق وجهه نافرة من شدة الغضب.
ميرفت تخاف الله، لذا تركت أول عمل لها في حياتها، في محل خردوات، خوفاً من أن تمد يدها إلى علبة البنسات الملونة. سمعت الشيخ يقول ذلك في المسجد، هو لم يتحدث عن البنسات تحديداً، لكن كما تعلمون فالحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه، لذا قررت أن تقطع رزقها بيدها وتبحث عن عمل آخر.
لم تجد العمل الذي حلمت به وهي صغيرة، وأضحك عليها الفصل كله، عندما وقف المعلم أمام السبورة وأشعل سيجارة

t.me/qurssan

سوبر وشد شعرة في أذنه نظر إليها في تعجب، ثم سأل الطالبات عن الوظائف التي يحلمن بها عندما يكبرن، فردت عندما حان دورها: حارسة بيت الزواحف في حديقة الحيوانات. المعلم لم يعلّق لأنه غالباً لم يفهم، وزميلاتها ضحكن بشدة دون خوف من عصا مستر ناصر وتوبيخه. أما هي فتذكرت الرحلة الوحيدة التي خرجت فيها مع زميلاتها أيام المدرسة إلى حديقة الحيوانات، وهناك وقفت مشدوهة أمام بيت الزواحف.

يومها عشقت التمساح، بحراشفه التي تقيه النظرات المتطفلة التي تعاني منها دائماً، بمكوثه الدائم تحت الماء هرباً من الساخرين، بفمه الواسع الذي يتيح له أن يقول كل الكلام الذي في جوفه مرة واحدة دون أن يخبئ شيئاً أو يجبره لوم الناس على الصمت. وحين عادت إلى المنزل في ذلك اليوم، لم تستجب لنداء أمها لتناول العشاء، وهرولت إلى حقيبتها، أخرجت كراسة الرسم، قطعت ورقة من المنتصف ورسمت تمساحاً مبتسماً بعرض الصفحتين، لونته بالبنفسجي والأخضر والأصفر. قطعت الورقة وعلقتها على حائط غرفة نومها، واصطحبتها معها بعد ذلك إلى كل مكان ذهبت إليه.

هل ميرفت غريبة؟

ترد على من يصفها بذلك بهز كتفيها، ومط شفتيها. لكن جميعهم يقولون ذلك، وكأنهم اتفقوا عليها.

عموماً، لا أحد يستطيع أن يقول لها شيئاً الآن، بعد أن كبرت، وأصبحت آراء الجميع بالنسبة لها مثل بقايا طبق الأرز المحترق

الذي تسكبه كل يوم في سلة المهملات، ففي غرفتها أعلى تلك البناية الحقيرة القريبة من خط المترو أول شارع فيصل تستطيع أن تفعل ما تشاء، تربي كلاباً أو ثعابين أو دوداً كما تشاء، هي حرة، ستتحمل نظرات النجار أسفل المنزل، والأرملة التي تمصمص شفتيها كلما رأتها داخلة أو خارجة، والمرأة الممتلئة في الدور الثاني، وتواصل صعودها إلى حجرتها على السلم الضيق المظلم، تغلق الباب خلفها جيداً، وتبدأ حياتها الحقيقية.

t.me/qurssan

ليست من هنا ولا من هناك
ليس لديها مرآة في البيت ولم يرها أحد
لا تركب الطائرات ولا حافلات العامة
لا تطير ولا تسير

قوم جلوس حولهم ماء ـ 2006

لا تعرف ميرفت لماذا تحب هذه الأشياء تحديداً، كما لا تعرف ما وجه الغرابة في ذلك.
علماء النفس، عادة يردون الهوايات والتصرفات الغريبة إلى عوامل مؤثرة في الطفولة، لكنها لا تذكر شيئاً من هذه الطفولة.
ذات مرة سألها زميلها في مطعم صيني بشارع الهرم كانت تعمل به، عن طفولتها، أراد أن يمرر الوقت بأي حكاية، قبل أن يأتي زبون جديد، لكن الزبون جاء، ولم تجب. لم تجب لأنها لم تكن تعرف الإجابة على وجه التحديد، وشعرت أن الله أرسل هذا الملاك/ الزبون لكي ينقذها، لم ينتبه زميلها إلى الهالة التي تضيء رأس الزبون، لكنها رأتها، وغمزت له، فأنارت الضحكة في جوفه، حتى رفرف قميصه، وهو يحاول أن يصرف نظره عنها لكي لا يلفت انتباه عاطف.
من عاطف؟ إنه الزميل الذي عاد ليسألها بعد أن انصرف الملاك

t.me/qurssan

عن طفولتها، نظرت إلى الباب لم يكن هناك ملاك جديد، لكن كانت الساعة تشير إلى انتهاء نوبة العمل، فاستأذنت وغادرت وهي تشكر الله على رعايته لها.

عندما عادت إلى غرفتها ذلك المساء، تمددت على سريرها دون أن تخلع حذاءها، وحدقت في السقف الواطئ، أغمضت عينيها، محاولة الوصول إلى إجابة لذلك السؤال: طفولتها، بدايتها.

لأول وهلة، أدركت أنها تملك في ذاكرتها ثلاث حكايات لهذه البداية، كلها تسبق وجودها في شارع فيصل، الحكايات الثلاث تنتهي في محطة القطار، التي تتذكر ما بعدها تماماً، عندما جاءت للدراسة في الجامعة، ثم قررت أن تعيش في هذه المدينة للأبد، بحثاً عن ذاتها ومستقبلها.

قبل ذلك لا تستطيع أن تحدد ماذا حدث بالضبط:

هناك حكاية تقليدية تبررها بإصبع زائد في قدمها، تقول إنها جاءت من قرية فقيرة في وسط الصعيد، لعائلة كل أبنائها يملكون ستة أصابع في القدم اليمنى، رفضت الزواج من ابن عمها الحاصل على دبلوم تجارة ويعمل في أحد محلات الأحذية في الغردقة ويعود في الأعياد بما استطاع تدبيره. واختارت أن تكمل تعليمها في القاهرة لأنها ترى نفسها خارج هذا السياق التقليدي: تتزوج وتطبب أمه، وتخدم في المنزل والحقل حتى يعود كل عيد.

الحكاية الثانية تبررها بقلادة على شكل علم فلسطين تعلقها في رقبتها، تقول إنها فلسطينية، والدها تزوج أمها التي تعود

أصولها إلى مدينة طنجة بالمغرب، عندما كان يدرس في جامعة القاهرة، ثم عاد إلى رام الله، تظاهر ضد أوسلو، واختار أن يكون قريباً من المسجد الأقصى فأصبح يترك بيته ويبيت ليله داخله، واستشهد في الانتفاضة الثانية، أما هي فبقيت مع أمها التي عادت إلى أهلها في مدينة المنصورة، وعندما ودّعتها في محطة القطار لكي تلتحق بالسنة الأولى من الجامعة حذرتها من الحب وحفظ ملابس الشتاء دون نفتالين ونسيان المكرونة على النار حتى تحترق، لم تفعل شيئاً آخر سوى هذا.

الحكاية الثالثة تبررها بوحمة باهتة أسفل كتفها لسمكة لا تكاد تبين، ترى نفسها تطل من نافذة شقة صغيرة قديمة على بحر الإسكندرية، تخرج مع أمها، التي وشمت عروس بحر ممتلئة على كتفها، كل مساء للتمشية على الكورنيش، ريثما يعود أبوها من المقهى، تتذكر أنها تعود مع أمها لكن والدها لا يعود. في الصباح تضع لها أمها ساندوتشات "الحلاوة الطحينية" التي لا تحبها، في حقيبة منزلها، وتوصيها بأن تأكلها ولا تعطي منها أحداً. تهز رأسها، وهي تجلس في المقعد الخلفي، لسيارة أمها الصغيرة.

تكمل الأم طريقها إلى عملها في مصلحة الضرائب، وتنطلق هي إلى داخل المدرسة، تضع الساندوتشات في سلة المهملات، خلف الباب الرئيسي، ثم تصعد إلى الفصل، لترقص مع زميلاتها في الحصة الأولى التي يغيب فيها المعلم دائماً، على نغمات أغنية جديدة لمصطفى قمر أو إليسا، قبل أن يدخل معلم الحصة الثانية. لم تستطع أن تلتحق بالثانوية العامة لضعف مستواها، أو لحسن

t.me/qurssan

حظها، فقررت أن تدخل دبلوم تجارة لكي تلتحق بعده بكلية تجارة وتسير على خطى أمها. في الدبلوم درست الآلة الكاتبة، دون أن تعرف لماذا، فالمجتمع كله يستخدم الكمبيوتر، وعندما اشتكت لأمها من هذا الأمر، أهدتها في عيد ميلادها التالي "آلة كاتبة" عتيقة منقوش على أحد طرفيها: "وطب نفساً إذا حكم القضاء"، وعلى الطرف الآخر "رصيف نمرة خمسة والشارع زحام، وساكت كلامنا ما لاقي كلام"، فتسأل نفسها كلما وقعت عينها عليها: لماذا كانت سيمون تبكي طوال الفيلم الذي يحمل اسم الأغنية؟

حصلت على مجموع كبير في السنة الأخيرة للدبلوم يؤهلها لدخول الكلية كما تمنت أمها، لكن حين عادت إلى البيت لتشاركها فرحتها بالنتيجة، وجدت الجيران يملؤون الشقة، وبعضهم يبكي على السيدة الطيبة التي تركت بنتاً وحيدة بلا عائل. لا تعرف ماذا حدث، لكن بعضهم يقول إنها أزمة قلبية، والبعض يهمس بأنها حبة فول سوداني وقفت في حلقها وهي منهمكة في الأكل والرد على استفسارات المواطنين في الوقت نفسه، فيما يتهم البعض سمكة البحر الموشومة على كتفها بسرقة روحها، لكن بعد أن انتهت كل هذه الأمور، قررت أن تغلق شقة الإسكندرية، وأن تنتقل للحياة في القاهرة، للدراسة وبحثاً عن فرصة عمل.

في الحكايات الثلاث لا يوجد والدها، تعرف أنها فقدته بطريقة ما، وأنها حزنت عليه، لكنها لا تعرف كيف، تماماً كما لا تعرف أى واحدة هي: هل هي ميرفت الجنوبية التي رفضت الزواج من ابن عمها، أم ميرفت الفلسطينية التي حذرتها أمها من الحب، أم ميرفت الإسكندرانية ابنة الطبقة المتوسطة، التي تجيد استخدام الآلة الكاتبة؟

مذهلة كاكتشاف الشاي بالحليب
تفتح فمها تأهبا لأغنية طويلة
ترشق صمتها في الأوركسترا فتبكيها
كلما رآها العابرون صمتوا
كلما شافها البحر قال: كنا طرائق قدداً

مديح الغابة ـ ٢٠٠٧

كان غريباً أن تحب ميرفت العناكب وتختار العمل في مطاعم فقط. لكن «ما هو الشيء الذي ليس غريباً في هذه الحياة؟».
هذه الجملة تحفظها ميرفت وترد بها على من يقول أمامها، كلمة «غريبة». واحدة من أمهاتها الثلاث كانت تستخدم للرد عبارة: «ما غريب إلا الشيطان»، لكنها يجب أن تواكب العصر، وأن يكون ردها أكثر حكمة ومنطقية.
استغلت العمل بالمطاعم، في الحصول على بنسات الشعر من زميلاتها المحجبات، وصيد العناكب من أركان المطابخ، لكنها كانت تغير المطاعم مثلما تغير قصات شعرها.
في الحقيقة، هي لم تغير قصات شعرها كثيراً، ربما أربع مرات فقط، لكسر الملل وطرد النحس، لذا لا يمكن أن نعتبر هذا التشبيه دقيقاً تماماً، وإن كانت تحب أن ترد به ساخرة على كل

t.me/qurssan

من يسألها عن سبب تغيير مكان عملها باستمرار.
جربت ميرفت العمل في مطاعم كثيرة، كل أنواع المطاعم التي يمكن أن تخطر بالبال، محلات الفول والطعمية الرخيصة في السيدة زينب، مطاعم البيتزا والباستا الغالية في سيتي ستارز، محلات الفشة والممبار في إمبابة، محلات الوجبات السريعة في شارع جامعة الدول العربية بالمهندسين، محلات الكشري بمدينة نصر، كوستا وسيلانترو في مصر الجديدة، اعتادت أن تترك المطعم الذي تعمل به بعد ثلاثة أشهر في كل مرة. لا تعرف لماذا ثلاثة أشهر بالتحديد، لكن في كل مرة كان هناك سبب ما: مرة لأنها خرجت بفأر ميت وجدته في المطبخ إلى صالة المطعم لتريه للمديرة وسط الزبائن، ومرة لأن زميلة لها اتهمتها بسرقة «بنسة» شعرها، ومرة لأنها كانت تسمع صوت مدير المطعم ضراطاً وتشم رائحة فمه فساء، فلم تكن تميز ما يريد قوله بالضبط، ومرة لأنها خشيت أن تقع في الحب.
لكن المرة التي أثرت فيها كثيراً، كانت عندما أمسكها مدير المطعم خارجة من حمام الرجال، لم يكن معها أحد، حاولت إقناعه أنها كانت تقضي حاجتها ليس أكثر، لكن الرجل ذا اللحية الكثة، لم يسمعها أصلاً، فقط قال لها: أنت تعملين معي منذ ثلاثة أشهر، لكن كله إلا هذا.
ميرفت غضبت لأنها طردت لسبب تافه كهذا، لكنها هزت رأسها مرة أخيرة لصاحب المطعم، دون أن يبدو على وجهها أي تأثر، ومدت يدها إليه لتأخذ منه باقي أجرها. قبل أن تغادر استأذنت

في دخول حمام السيدات مرة أخيرة، وفي الداخل، أخرجت قلم شفاهٍ أحمر من حقيبتها، لا تستعمله كثيراً، وكتبت على الباب: «إذا ماتت/ طردت اليوم ميرفت، فهناك ألف ميرفت».

الحقيقة التي لم تروها ميرفت، هي أنها أرادت أن تقوم بمغامرة صغيرة، ما الذي يحدث في حمام الرجال، لماذا يحاط بهذه الهالة الغريبة، ما الغريب فيه، لذا قررت أن تدخل، وأن تستعمل «المبولة» المُحرمة على الفتيات.

بعض التفاصيل من الأفضل عدم حكيها، لكن الحمّام كان سبباً مرة أخرى في طردها، عندما أشعلت سيجارتها داخل حمّام مطعم آخر، وظلت تنفث الدخان، غير مهتمة بصافرة الإنذار التي انطلقت بسبب دخان السيجارة. لم يمنعها أحد من التدخين خارج الحمّام، لكنها لا تستمتع بالسيجارة إلا داخله، حتى في بيتها، رغم أنها تسكن وحدها، عندما تريد أن تدخن تدخل الحمام، وتغلق الباب جيداً، ثم تنفث الدخان. فسرت ذلك مرة لنفسها بأنها تحاول أن تستعيد تلك المتعة التي اقتنصتها من أول سيجارة في حياتها، رابطة ذلك بحمام المدرسة الإعدادية المشتركة، الذي شهد تلك اللحظة التاريخية.

لم تستفد ميرفت شيئاً من كل هذه المطاعم سوى أنها أصبحت تقدم وصفات طعام مجاناً للفتيات وربات المنازل على «منتدى فتكات» الذي تقضي معظم وقت فراغها تتصفحه، وتفتش عن أسرار البنات التي يروينها لمن يريد أن يسمع. ولأنها ليس لديها صديقات، اختارت أن يكُنّ صديقاتها، حتى ولو لم يكن يقصدنها

t.me/qurssan

تحديداً بحكيهن، وأن تكون الأسرار التي تحفظها وتكتمها هي أسرارهن، رغم أنها مكتوبة للعلن.
لا يلفت انتباهها في الزبائن سوى جواربهم، بعد أن تقدم الطعام للزبون تقف في ركن بعيد، وتتسلل نظراتها على الأرض، تنظر إلى الأحذية ومن ورائها الجوارب، تعرف الآن كل أنواعها، لدرجة أنها من الممكن أن تؤلف موسوعة عنها تحمل اسم «المآرب في علم الجوارب»: هذا جوربه مخطط، وهذا قصير، وهذا رائحته تطارد المارة في الشارع، وهذا يرتدي صندلاً. آخر زبون لفت انتباهها بشدة، حتى أنها شعرت بالتعاطف معه، كان يرتدي جورباً من لونين مختلفين.
كان وقت الظهيرة، ولم يعد مدير المطعم من قيلولة الغداء بعد، ولا يوجد معها أحد سوى زميلتها التي تلون أظفارها في المطبخ وتناولها الأطباق، ولا زبائن في المطعم سواه، لذا لم تتردد أن تتوجه إليه وتتحدث مباشرة:
ـ هل أعجبك الأكل؟
ـ تسلم يدك.
ـ نحن هنا نطهو طعاماً منزلياً.
لم تجد في نفسها الجرأة أن تلفت انتباهه أو تسأله عن سر جوربه، فعادت خطاها إلى مكانها الأول، لكن عندما غادر الرجل المطعم، لم تستطع أن تتمالك نفسها وخرجت خلفه حتى دون أن تستأذن من زميلتها. سار الرجل طويلاً وسارت وراءه، قطع شارع عبد الخالق ثروت، وقطعته وراءه، سار في شارع

٢٦ يوليو وهي خلفه، هبط إلى محطة مترو جمال عبد الناصر، وعبر الماكينات ولم تتوقف عن متابعته، ثم قفز إلى المترو الذي أغلق بابه على طرف قميصه، وعندما التفت إلى الخارج بينما المترو يتحرك بدا لها أنه لمحها، كانت في عينيه ابتسامة، وكان في عينيها شيء لم تقله.

طبعاً، تركت ميرفت العمل، بعد أن تغيبت في الخارج ساعتين، وفشلت في أن تجد كذبة ملائمة، لكنها لم تحزن كثيراً، فقد كان هذا يومها الأخير في الأشهر الثلاثة.

لم تعد إلى البيت، ولم تغضب من صاحب العمل، تعرف أن الثلاثة أشهر مضت، ويجب أن تبحث عن عمل جديد، ذهبت إلى مقهى إنترنت في باب اللوق، تصفحت الجديد في نكات البنات على منتدى فتكات، وكتبت تعليقاً واحداً متكرراً أسفل كل ما تصفحته:

ـ مشكور

ثم طبعت «السي في» الذي تحتفظ به على بريدها الإلكتروني، بعد أن أضافت اسم مطعم عمارة الإيموبيليا لقائمة الخبرات.

ثم توجهت إلى عمارة الإيموبيليا، مرّت أمام المطعم الذي تركته كأنها تودعه لآخر مرة. كان مغلقاً. اكتشفت أن بعض حروف اسمه المعلقة فوق بابه قد سقطت، ولأول مرة تلاحظ هذا الكم من التراب على واجهته، كأنه مغلق من زمن. كانت قد أكلت فيه قبل سنوات، بعد أسابيع من قرارها الاستقرار في القاهرة، لا تزال تذكر أجواءه، ربما أحبته بشكل خاص لأنه ارتبط بتلك

t.me/qurssan

الأيام التي تحمل ذكرى اكتشاف حياة جديدة.
عملت ميرفت في معظم مطاعم عبد الخالق ثروت، ومحمد فريد، ومحمد محمود وعدلي وطلعت حرب، لذا قررت أن تبحث في منطقة أخرى، في الجهة الأخرى من النيل، لذا قطعت كوبري قصر النيل مشياً، ثم كوبري الجلاء، ثم شارع التحرير.
أمام سينما التحرير توقفت قليلاً، تأملت أسماء الأفلام ووجوه الممثلين على الأفيشات، قبل أن تغير رأيها وتلج من شارع جانبي إلى شارع مصدق الذي يمتلئ بالمطاعم. ابتسمت عندما دخلت الشارع كأنها عثرت على العمل الذي تريده.
تأخرت كثيراً في العودة إلى منزلها في ذلك اليوم، لكنها لم تلحظ ذلك، فقد كانت سعيدة بالحصول على عمل جديد في نفس يوم فقدانها العمل، كما كانت مشغولة بذلك الرجل الذي يرتدي جوارب من ألوان مختلفة، وقررت أن تكافئ نفسها بفيلم جديد.

بالأمس
أدركت أن كل الأشياء تشبهك
حتى الملاك الذي رف بجناحيه
حول السرير وقال:
- تصبح على خير.

مقدمة في الغياب - 2014

خرجت ميرفت من سينما أوديون مذهولة، بعد أن شاهدت فيلم "المنتقمون the avengers - الجزء الأول". سمعت عن الأرملة السوداء من قبل، لكن هذه أول مرة تشعر أنها تشبهها فعلاً.
حسناً، بينها وبين نفسها تعرف أن هناك فارقا كبيراً بينها وبين سكارليت جوهانسون، لكنهما في النهاية امرأتان، تشتركان في المشاعر الأنثوية ذاتها. لكن بعد تفكير أدركت أنها لم تعجب بسكارليت على وجه التحديد، بل أعجبها أداءها لشخصية "الأرملة السوداء"، وعندما بحثت عن معلومات عنها على جوجل، أدركت لماذا هي معجبة بها إلى هذا الحد.
"الأرملة السوداء" هي أحد أنواع العناكب المشهورة بسمها المؤثر على الأعصاب. هي نوع كبير الحجم يتواجد في جميع أنحاء العالم ويرتبط عادة بالبيئات الحضرية أو المناطق الزراعية،

t.me/qurssan

يمكن للإناث أن تعيش حتى ٥ سنوات بينما تكون حياة الذكر أقصر بكثير، وعلى خلاف الاعتقاد السائد، من النادر أن تفترس الأنثى الذكر بعد التزاوج. اسم عنكبوت الأرملة السوداء شائع الاستخدام عندما يشار إلى الثلاثة أنواع الأمريكية الشمالية والتي تتميز بألوانها الداكنة. ويُعرف ٣١ نوعاً منها العين الحمراء، والأرملة البنية أو الأرملة الفضية، والأرملة الحمراء، وفي جنوب أفريقيا تسمى الأرملة السوداء بالأرملة ذات الأزرار.
ثمة إجابة ناقصة هنا، بغض النظر عما حاولت ميرفت إقناع نفسها به. هل أحبت الأرملة السوداء لأنها عنكبوت، أم لأنها سكارليت جوهانسون، أم لأنها سعيدة بالحصول على عمل جديد فقررت أن تحب أول شيء يقع في طريقها، أم لأنها لا تملك هذا النوع من العناكب أم لأنها أرادات أن تصرف تفكيرها قليلاً عن الرجل ذي الجوربين المختلفين؟
الإجابة: أن ميرفت تحب كل ما يتعلق بالعناكب. يجب أن نعترف بهذا حتى نكمل الرواية معاً، فالجدل سيؤخرنا عدداً من الصفحات ولن نصل إلى نتيجة في النهاية. وحتى أغلق هذا الجدال تماماً سأقول: ميرفت أحبت سكارليت لأنها أصبحت عنكبوتاً، وقد بدا لها الأمر غريباً.
ولمزيد من التوضيح أقول: ميرفت ليست شخصية غرائبية، هي تحب الأشياء الغريبة، لكن حياتها غاية في الروتينية، تشترك في جميع منتديات الغرائب على الإنترنت، وتدمن قراءة روايات أحمد خالد توفيق، ومشاهدة أفلام هيتشكوك وتحفظ مشاهد

كاملة من «صمت الحملان»، وتدمن هاري بوتر والهوبيت وسجلات نارنيا وملحمة الشفق، وتمنت أن يسميها زملاؤها «ساحرة الأدغال السوداء»، لكن ملامحها البريئة، أو البلهاء كما يرى البعض، جعلت تحقيق تلك الأمنية مستحيلاً، بالإضافة إلى عدم وجود أدغال أصلاً في شارعها، وفي النهاية قررت أن تنشئ مجموعة على فيس بوك أسمتها «أشياء غريبة»، لم يتجاوز عدد مشتركيها الخمسين، جمعت فيها كل الصور الغريبة التي تعجبها أثناء بحثها على الإنترنت.

كانت صوراً مقرفة في الحقيقة، على غرار امرأة جميلة تهطل من أسنانها الدماء، أو امرأة بدلاً من عينيها فمان مفتوحان، أو امرأة بذيل كلب. لكنها في ذات الوقت كانت تحصل على عدد مشاركات كبير من المتابعين الذين يكتبون تعليقاً «سبحان الله على جمالك»، دون أن يوضحوا جمال أيهما: ميرفت أم الصورة المقرفة.

لماذا العناكب؟ أحياناً كثيرة تسأل ميرفت نفسها هذا السؤال؟ لكن عقلها الباطن لا يجيبها بشيء، هي لم تحلم يوماً أن تكون «سبايدر وومان» لمنافسة سبايدر مان، لا تنكر أنها جربت مرة أن تتسلق الحائط بعد أن شاهدت ما فعله توبي ماغواير في الجزء الأول من الفيلم، ففشلت وأدركت أنها لا تملك الموهبة، لكنها بينها وبين نفسها تحسد العناكب على دأبها ووحدتها، فدائماً ما تجد العنكبوت وحيداً في أقصى ركن الحجرة.

حجرة ميرفت تمتلئ بالزجاجات البلاستيكية الفارغة. تضع في

t.me/qurssan

كل واحدة عنبكوتاً، ثم تغلق عليه جيداً، تثقب الغطاء ثقباً صغيراً يسمح بدخول الهواء، وتظل طوال وقت فراغها تراقب العنكبوت وهو ينسج خيوطه داخل الزجاجة.

في هذا اليوم، لم تحصل على عناكب جديدة، عادت إلى البيت مرهقة، تفكر في الرجل ذي الجوربين المختلفين وسكارليت جوهانسون. نظرت من نافذة غرفتها إلى الشارع حيث يلعب الأطفال الكرة، ويبصقون على بعضهم البعض ويسبون أمهاتهم بالتبادل، ثم أغلقتها، وجلست في الركن، تدخن وتفكر: لماذا تهتم بهذا الرجل؟ لم تكن تطمح في الوصول إلى إجابة، أرادات فقط تمضية الوقت في أي شيء حتى يداهمها النعاس، فكرت في ألوان الجوارب المفضلة بالنسبة لها، ثم رمقت صف مجلات قديمة بجوار السرير، قرأت قليلاً في مقال يتحدث عن أن الإغريق كانوا يستخدمون خيوط العنكبوت لخياطة الجروح بحكم احتوائها على خواص تسرع التئامها، كما وضع علماء ألمان في جامعتي بايرويت وايرلانغن، «حجر الأساس» ـ بحسب تعبيرهم ـ لصناعة القلوب البشرية من نسيج العنكبوت.، وجاء في تقرير على صفحات مجلة "المواد الوظيفية المتقدمةAdvanced Functional Materials» أنهم استخدموا بروتينات معينة في خيوط العنكبوت لإنتاج أنسجة قلبية يمكن أن تدخل في إنتاج قلوب كاملة صناعية، ويمكن أن تستخدم في ترميم القلوب بعد تعرضها للجلطات، فضلاً عن استخدام سم العناكب الذئبية (ترانيشولا) في منع الإصابة بحالة انقباض القلب.

لاتميل لقراءة المقالات العلمية رغم حبها للعناكب، فتناولت مجلة أخرى قديمة قلبت عناوينها: «اذا كنت من مواليد ١٩٥١ حتى ١٩٩١، يجب أن تقرأ هذا المقال الذي سيجعلك غنياً». لم تكن ميرفت في هذه اللحظة تطمح أن تصبح أي شيء، فأغلقت المجلة، واستغرقت في نمو عميق.

t.me/qurssan

كتاب القصة، يزعمون أنهم خلقوا الحبكة
هم حتماً لم يروا ميرفت بعد
لم يجربوا أن يأكلوا من يديها البطاطس
أو أن تتركهم واقفين في المحطات
وهي تبتسم في المترو الذي انطلق

طاعون يضع ساقاً فوق الأخرى وينظر للسماء ـ ٢٠٠٨

استيقظت ميرفت وهي تفكر في الرجل ذي الجوربين المختلفين. في الحلم رأته واقفاً في محل لبيع الجوارب، يرتدي واحداً بعد الآخر، ثم رأته عائماً في إناء واسع يمتلئ بالملوخية قادماً نحوها، يجدف بملعقتين خشبيتين، ثم رأته في المترو يقفز سريعاً من عربة إلى أخرى، ثم رأته عفريتاً يخرج من مصباح تقوم بدعكه. ثم رأته في فيلم من إخراج كريستوفر نولان يقوم بدور باتمان، ثم سوبرمان، ثم آنت مان، ثم هيتمان، ثم آيرون مان ثم آكرومان ثم بيرد مان ثم سبايدرمان ـ الجزء الثاني، وقد تعلق بالحائط مقلوباً وينظر لها من بعيد. في كل هذا، لم تتحدث معه أو تقترب منه، فقط تراقبه من بعيد في ترقب لخطوته التالية، لكنها ابتسمت لدوره الأخير كرجل عنكبوت، فكرت للحظة وهي تدعك عينيها: هل يحب العناكب؟

t.me/qurssan

وكما لا تعرف ميرفت كيف كانت بدايتها، وكم عدد العناكب التي تقتنيها، لا تعرف كيف ستكون نهاية حكايتها مع هذا الرجل. وكما أن لها ثلاث بدايات يمكنها أن تقول بثقة، وهي تضع ثلاث ملاعق سكر في كوب الشاي باللبن وتقلبه جيداً، ثم تضع إصبع بقسماط به وتنتظر قليلاً قبل أن ترفعه إلى فمها، إن هناك ثلاث نهايات لهذه الحكاية.

تقف أمام حائط غرفتها، تفكر وهي تتأمل صورة كبيرة تعلقها لـ"حزلقوم"، بشعره البرتقالي وقبضة يده مضمومة أسفل خده وابتسامة خجولة على فمه، كتبت أسفلها بقلمها الرصاص: "أنا من عابدين يا فضائيين"، تتأمل خطها الذي بهت مع الوقت، لا أعرف إذا كان شبيهاً بذلك الخط الذي وجده بيبو في طفولته أم لا، لكني أعرف أنه يبهت. يبهت مثل قصص الحب، التي بثلاث نهايات، وثلاث طرق لا تعرف ميرفت أي واحد منهم ستسير فيه.

ثلاث نهايات بثلاثة احتمالات:

الأول: أنها أحبته، لكن الاختلافات بينهما لن تجعلهما يكملان الطريق

الثاني: ربما تكون قابلته، لكنها لم تحبه، لأن شيئاً بينهما لم يحدث

الثالث: أنها لم تقابله أصلاً.

الاحتمال الأول:

الإسكندرية هي الحل. مفتاح السر وحل اللغز، كما قال بشر

عامر عبد الظاهر في «زيزينيا».
قارئو القصص البوليسية يعرفون أن ثمة ثغرة هنا، الذين قرءوا وشيرلوك هولمز وهيركيول بوارو وكونان وميجريه والآنسة ماربل وإيرلي كوين ومغامرات (ع 2 x) والشياطين الـ١٣ والمغامرون الخمسة، يعرفون أن ثمة حلقة ناقصة في هذه الحكاية. وهذه الحلقة هي الإسكندرية.
لماذا الإسكندرية تحديداً؟ لماذا كانت إحدى بدايات ميرفت على البحر؟، لماذا تسمع في أحلامها صوت ارتطام الموج بالصخور، مثل تحطم كوب زجاج سقط من يد نادل مقهى في يوم عمله الأول، لكنها لا ترى أياً من المشهدين بل وجه الرجل ذي الجوربين؟ لماذا عندما رأته في المطعم شعرت أنه يقف على ضفة أخرى، وأن طاولة الطعام هي البحر، والأطباق سفن قراصنة أشرار؟

الاحتمال الثاني:
أول مشهد تذكره ميرفت لنفسها في القاهرة، في محطة مصر. تهبط من قطار فقير قادم من مكان ما، أول ما تذكره خطوتها الأولى على الرصيف، وجهها يصافح مئات الوجوه التي تهرول دون أن تنظر باتجاهها، هي ليست موجودة أصلاً في محيطهم. تجذب حقيبتها الخضراء الثقيلة من القطار، تسندها على الرصيف بمساعدة شخص ما لم تتبين ملامحه، ثم تبدأ في الذوبان. حبة ملح في بحر. في إناء واسع تدور فيه بسرعة رهيبة. لا وجوه تعلق في ذاكرتها، ولا يعلق وجهها في ذاكرة أحد.

t.me/qurssan

كل الأشياء متشابهة. البيوت، الناس، الحكايات، المشاعر، الملابس المنشورة في البلكونات، وجوه المنتظرين في مواقف الحافلات، صيحات المتدافعين في الطرق، دوائر متقاطعة من البشر في العمل وصفوف الدرس والحياة، لكنها تظل وحيدة، عنكبوت في الركن يغزل بيتاً ليحمي نفسه، ربما يكون واهناً، لكنه كل ما تملك. يخبئها عن العيون، أو هكذا تتوهم، أو هكذا تحب أن تتوهم. شرط الحياة هنا: أن تكون جزءاً من المجموع، ألا تكون ملفتة، حتى لا يتوقف أحد أمامها فيتأمل وجهها ويسألها. لماذا تفعلين هذا. لكن حتى لا تذوب تماماً، وتتلاشى ذاكرتها، تصنع طقوسها اليومية، المترو، تذكرة المترو الصفراء، صوت ماكينة المترو عندما تعبر، صوت إغلاق باب المترو، العمل، صوت طشة الملوخية، اليونيفورم، دخان سيجارة ما قبل العمل، الوجوه المحدقة من البكلونات، باعة الأرصفة، بائعة الكتاكيت الصغيرة التي تقف أمامها تتأمل الريش الأصفر الجميل للكائنات البريئة، سكان الأسطح المجاورة، الكراكيب. تحفظ الوجوه ولا تحفظ الأسماء. تصبح جزءاً من مصفوفة كبيرة، وهكذا تمضى الأيام.

٣ـ الاحتمال الثالث:

تصف نفسها بالبنت الكونية، عندما ينحاز قلبها إلى حكاية بدايتها الثانية. أم من أصول مغاربية، وأب فلسطيني، وطفلة مصرية ولدت في الدلتا تقرأ الألغاز بنهم، وتفتش في كتب الغرائب عن أسطورة قديمة تكشف لها حقيقة نسل أمها. فتجد

أمامها المدينة الأفلاطونية اليوتوبية قارة أطلنطس، وأسطورة يونانية عن البطل الأسطوري هرقل الذي شقّ مضيق جبل طارق أثناء رحلاته البحرية، لوصل البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي.

يعتقد دكتور راينر كويهن من جامعة أوبرتال الألمانية، أن جزيرة أطلانطس تشير إلى جزء من الساحل في جنوب إسبانيا تعرض للدمار نتيجة للفيضانات بين عامي ٨٠٠ و٥٠٠ قبل الميلاد، وذكر أفلاطون أنها نشأت قبل نحو ٩٠٠٠ سنة من زمنه في منطقة مضيق جبل طارق بمحاذاة مدخل البحر الأبيض المتوسط قبالة سواحل إسبانيا، أسسها حاكم نصفه إله والآخر إنسان، الحياة البرية للجزيرة كانت غاية في الندرة والجمال، وشعبها من أرقى الشعوب وأعظمها، لكن في نهاية زمانهم تغيروا إلى الأسوأ؛ فانتشر بينهم الطمع وطغت مصالحهم الشخصية على العامة، وانتشر الفساد بينهم، فغضبت الآلهة وعاقبتهم بأن أرسلت عليهم في إحدى الليالي نيراناً وزلازل أغرقت المدينة في المحيط ولم يُعثر لها على أثر قط.

أما مغارة هرقل فتقول الأسطورة إن إفريقيا كانت متصلة بأوروبا، وأن هذه المنطقة كانت تفصل بحر الروم (البحر المتوسط) عن بحر الظلمات (المحيط الأطلسي)، ولما كان لأطلس ابن نبتون ثلاث بنات يعشن في بستان يطرح تفاحاً ذهبياً ويحرسهن وحش، قاتله هرقل وهزمه، لكن هرقل في غضبة من غضبات الصراع ضرب الجبل فانشق لتختلط مياه المتوسط الزرقاء بمياه الأطلسي الخضراء، وتنفصل أوروبا عن إفريقيا، ثم يزوج هرقل

t.me/qurssan

ابنه سوفاكيس لإحدى بنات نبتون ليثمر زواجهما بنتاً جميلة أسموها طانجيس، ومنها جاء اسم مدينة طنجة المغربية.

ما علاقتها بكل هذا؟ تذهب ميرفت إلى العمل وهي لا زالت تفكر في حل اللغز، تتابع أحد الزبائن بدون تركيز، فترى الكلام يخرج من فمه عبارة عن نقاط وفاصلات، فلا تفهم ماذا يطلب، يكرر الزبون كلامه، فتراه خارجاً من فمه مكتوباً بخط الرقعة الذي لا تحبه ولا تستطيع فك شفراته. تشير إلى زميلتها لكي تتفاهم معه، بينما تضغط بيديها على جانبي رأسها محاولة محاصرة الحل.
وقبل أن يقول قارئ انتهى لتوه من مشاهدة فيلم «لا تراجع ولا استسلام ـ القبضة الدامية» إن «الفكرة دي اتهرست قبل كده في مليون رواية»، أدعوه لمتابعة ميرفت التي غادرت المطعم، وسارت باتجاه شارع محيي الدين أبو العز، فيما تفكر في الرجل ذي الجوربين المختلفين، لم يشغل العمل الجديد بالها، بقدر ما شغله الرجل، كانت تفكر في اسمه، وفي طبيعة عمله، رجحت أن يحمل أحد الأسماء الجديدة المنتشرة هذه الأيام مثل «طارق»، أو «حازم»، أو «عبد الحفيظ». أما عمله، فبدا لها أنه قد يكون موظفاً في وزارة البيئة يحافظ على سلالة نادرة من دود القز وحيوان الليمور في محمية طبيعية، أو سائق حافلة في إحدى شركات السياحة، أو شاعراً. ارتبكت أمام الاحتمال الأخير، وهي تعبر شارع التحرير باتجاه محطة مترو البحوث. لم تكن ميرفت

تحب الشعر، بل ترى الشاعر مجرد مريض نفسي لا يستطيع التعامل مع الناس، فيقوم بإخراج أزماته النفسية من خلال ما يكتبه، ولهذا السبب لم تكن تحب ما تدرسه أيام المدرسة من نصوص، ولم تكن تحفظها. كانت درجاتها أقل دائماً في مادة اللغة العربية، ثم إنها لا تعرف لماذا يضيع شخص وقته في كتابة كلام بحروف متشابهة في نهاية الأسطر، هناك أمور أخرى في الحياة أهم من هذا، مثل ماذا؟ فكرت قليلاً ثم أجابت بجدية: تربية العناكب مثلاً.

ابتسمت إعجاباً بنفسها، وهي تعبر إلى داخل محطة مترو البحوث، عائدة إلى المنزل، آه لو كان يربي العناكب مثلها، سيكونان جمعية اسمها «جمعية محبي تربية العناكب»، ويخصصان لها مقراً في وسط البلد، ثم يعقدان ندوات أسبوعية للحديث عن أي شيء يتعلق بها، ويحصلان على تمويل من إحدى الدول الأوروبية، ويكتفيان بذلك عن العالم.

في المترو فضلت أن تركب عربة مختلطة. لا تحتمل عربة السيدات، حيث ترمقها العجائز بنظرات متفحصة، لا تعرف ما المقصود بها، أما في العربة المختلطة فكان بإمكانها أن تراقب جوارب الرجال من مكان وقفتها المفضلة بين ظهر المقعد والباب. تصلها مضايقات كثيرة، خاصة في أوقات الزحام، لكنها كانت تجهز نفسها دائما بشفرة حلاقة داخل حقيبتها. لم تستخدمها مطلقاً، لكنها تتأكد من وجودها كل يوم قبل أن تخرج من عتبة البيت. جربت مرة أمام المرآة في المنزل أن تضعها أسفل لسانها

t.me/qurssan

كما يفعل البطلجية، لكن لم تخرج من هذه التجربة سوى بجرح في اللثة، ولثغة خفيفة لثلاثة أيام.

أمام محطة فيصل، اشترت كيس خبز، وقطعتي جبن قريش من بائعة أمام سور المترو، استندت إلى سور مدرسة قديم وفتحت حقيبة ظهرها، مدت يدها وأخرجت سكوتر قديماً مثنياً، فردته وقفزت فوقه برشاقة، عبرت بين الميكروباصات والتكاتك عائدة إلى منزلها، غير ملتفتة إلى صافرة أطلقها مراهق ببذور شارب لم يظهر بعد، قطعت الشوارع الداخلية وهي تقرأ كعادتها لافتات المحلات المتربة، عبرت إلى شارع جانبي بسرعة وهي تميل مع انحناء الطريق، قفزت فوق بركة طين سببتها ماسورة صرف مكسورة، مرت بين دجاجتين تتناقران، مرقت بين أطفال يلعبون الكرة الشراب دون أن تسمع تعليقاً فجميعهم يعرفونها ويرونها تعبر يومياً، مانحة الشارع الكئيب بعضاً من الحياة.

وأنت أيضاً، إذا كنت تسكن في أول فيصل، ورأيت فتاة تعبر مسرعة راكبة سكوتر، على كتفيها حقيبة سوداء صغيرة، وترتدي بنطلون جينز أسود، وبلوزة سماوية مرسوم في طرفها عنكبوت، فاعرف أنها ميرفت عبد العزيز.

تعرفني عيناك ولا أعرفني
يهجوني الضفدع لما يقفز فى الليل من الماء
تهجوني اللمبة لما تحترق
تهجوني الحرب إذا قامت

مدهامتان ـ ٢٠١١

أحبت ميرفت العناكب.

هل هذا مبرر منطقي، عندما أقول إنها لم تحب شيئاً آخر.

لكن الأمر ليس متعلقاً بي، ولا بالمنطق، ولا بالعناكب، بل بميرفت ذاتها، التي تخاف من الحب. تكتفي منه بحكايات الزملاء وقصص المدونات والمنتديات والأفلام والمسلسلات الإذاعية وصفحات فيس بوك وكوميكسات تويتر وسناب شات واقتباسات إنستجرام ومجموعات تليجرام، وفي أسباب الجرائم التي تقرأ عنها في صحيفة «أخبار الحوادث».

تتذكر دائماً مدام شاهستا مديرتها في أحد مطاعم كايرو فيستيفال سيتي، والتي أحبت شخصاً إلى حد الجنون، وبعد زواجهما بثلاثة أيام مات في حادث سيارة. ولأنه أوصى قبل أن يموت أن تحرق جثته وينثر رفاته في حديقة منزله في القطامية، فقد فعلت ذلك، ونثرت الرفات على الزهور ونبتات

t.me/qurssan

الصبار وأصص الزرع التي تطل على غرفة نومها. ألم الفقد يمكن التغلب عليه بمرور الوقت، لكن ماذا تفعل عندما تجد أن كل زهور الحديقة قد نبتت وعلى أوراقها وجه زوجها المغدور؟ إنه يصيبها بالرعب كلما نظرت إليه.

أما شاهنده، مديرتها الأخرى في أحد مطاعم سيتي سنتر المعادي، فلا تختلف كثيراً، مرت بكل الخطوات المعتادة في القصص الرومانسية:

١ـ نظرة، ٢ ـ ابتسامة، ٣ـ تعارف، ٤ـ حب، ٥ـ حب جنوني، ٦ـ تمرد على رفض العائلة، ٧ـ حب أكثر جنوناً، ٨ـ خطوبة، ٩ـ زواج، ١٠ـ ٢٠ عاماً على الزواج، ثم لا شيء طوال هذه العشرين عاماً. لأن هناك أولاداً ومصاريف ومدارس وعائلات ومظهر اجتماعي والتزامات مؤسسة الزواج البائسة، إنه رعب من نوع آخر.

لكن بعيداً عن هذا، فميرفت عرفت الحب مرة واحدة. وكان ذلك في السينما.

لم يكن الأمر مرتباً، وربما كان كذلك لكني لا أعرف. أمام شباك سينما أوديون كان يدفع ثمن تذكرة الفيلم الوحيد المتاح في حفلة العاشرة صباحاً منخفضة السعر، بينما كانت تقف هي آخر الصف تتفحص الجوارب كما اعتادت. لا يرتدي جوربين، فقط شبشب منزلي رخيص على بذلة يبدو أنها من ماركة معروفة وغالية، فرفعت عينيها إليه لتلتقيا بعينيه، حياها بابتسامة خفيفة، ثم دخل إلى السينما.

كان فيلم رعب، ورغم أنها لا تميل كثيراً لهذه النوعية من الأفلام

إلا أنها قررت أن تدخله فربما يحرك شيئاً راكداً داخلها، اختارت مقعداً في الصف العلوي، لتراقب من خلاله الرجل الذي لا يرتدي جوربين. وهكذا ظلت طوال الفيلم، تنقل عينيها بين الشاشة، وبينه حين يمر مشهد مرعب كأنها تستمد منه الأمان، لكنه لم يكن ينظر إليها، لأنه كان نائماً.

كان يوم خميس، وفي الخميس التالي، ذهبت في نفس الموعد، وجدته يقف في نفس المكان، ولولا أنه اختار فيلم رعب آخر لقالت إن التاريخ يعيد نفسه.

يحكي الفيلم عن ولد وفتاة يركبان قطاراً من محطة مصر إلى الإسكندرية، يتعارفان في الطريق، فتحكي له عن حبها لركوب الدراجات ويحكي لها عن كراهيته الشديدة للبراغيث، تقول له إنه يشبه خواكين فينيكس ويقول لها إنها تشبه ياسمين رئيس، ثم يقرر أن يدعوها إلى حفل للسيرك الأوروبي، وهناك تبدأ الأحداث الدامية. لم تعرف ماذا حدث بعد ذلك، لأنها انشغلت بمتابعة انعكاس المشاهد على وجهه. لكن الغريب أنه بدا لها نائماً، ورأسه ملقى إلى الخلف على المقعد لكن الأحداث تؤثر على ملامحه كأنها تدور في رأسه.

أمام باب صالة السينما، رأته يخرج وهو يتثاءب ثم يفرك عينيه، فابتسمت عندما تأكدت من صدق حدسها. فرد على الابتسامة بضحكة خفيفة، عندما أدرك أنها اكتشفت خدعته.

سارا معاً حتى موقف ميكروباصات عبد المنعم رياض، وفي الطريق حكى لها السر: لقد اكتشف طريقة جديدة لهزيمة الأرق،

t.me/qurssan

الذي كان يراه بملامحه الزرقاء في كل مكان يتحرك فيه. وصار يدق على بابه كل ليل، ولأنه من "بيت كرم"، فلم يكن يستطيع أن يرد طارقاً. كانت السينما هي سريره الجديد. اكتشف ذلك عندما دخل سينما كوزموس في شارع عماد الدين. كانت تعرض أحد الأفلام الأمريكية الحديثة، وأمام الشاشة المضيئة، وتحت عدسات النظارة الـ3D، وعلى وقع صوت الصراخ والانفجارات، استغرق في النوم، لم يستيقظ إلا عندما هز عامل السينما كتفه، لتنظيف الصالة استعداداً للحفلة القادمة.

أصبح همه في الأيام التالية أن يبحث عن الأفلام الطويلة، لكي يتمكن من النوم أكثر، يدخل منذ بداية الفيلم، ويستيقظ مع نزول التترات، اكتشف بعد ذلك السينمات الشعبية التي تقدم أكثر من فيلم في الحفلة الواحدة، ففي سينما علي بابا ببولاق أبو العلا، كان بإمكانه بتذكرة واحدة أن يظل نائماً أكثر من ثماني ساعات فيما يعرض الفيلم تلو الفيلم، دون أن يوقظه أحد، بعد أيام قليلة اكتشف أنه تخلص من الأرق تماماً، بل لم يعد حتى يتذكر ملامحه، وبات بإمكانه أن ينام في البيت، على صوت التلفزيون وبصحبة كيس فوشار كبير وعبوة كولا من الحجم العائلي، استطاع خداع الأرق، لكن رغم ذلك ظل يحافظ على عادته القديمة بالنوم في السينمات، مرة كل أسبوع على الأقل، لذا يأتي بـ "شبشبب" النوم، حتى لا يضايقه الحذاء. ودّعها عند موقف ميكروباصات فيصل، ثم اتجه إلى حيث يركن سيارته في جراج عبد المنعم رياض، فتابعته بعينيها حتى اختفى.

كانت هذه هي المرة الوحيدة التي تبادلا فيها الحديث، فبعد أسبوع واحد، عندما دخل فيلماً عن السائرين نياماً، انتهى بموت البطل بينما هو نائم، ولأن أحداث الفيلم تدور في رأسه بالتوزاي ويرى نفسه بطل الفيلم، فقد حلم أنه نام، ولما انتهى الفيلم لم يستيقظ، لأن البطل لم يستيقظ في مشهد النهاية.

لكن بعدها بسبعة أيام، وعندما دخلت السينما في الخميس التالي، ورأت مقعده فارغاً، أدركت أنها لم تحبه، كانت فقط تسعر بالأمان لوجوده في مشاهد الرعب، ربما يكون الأمان أحد وجوه الحب، لكنها الآن تستطيع أن تشاهد أشد أفلام الرعب تخويفاً، دون أن يرمش لها جفن.

t.me/qurssan

لا تأكل ولا تخفي في حقائبها الحبق
لا ظل لها وتزداد نحولاً
تحكي عن الأطياف والموتى
وتعرف الملائكة بالاسم
لأنها تتحدث كثيرا مع الله

قوم جلوس حولهم ماء ـ ٢٠٠٦

في عيد ميلادها، وصلتها باقة ورد إلى المطعم. فتحت الكارت المصاحب للباقة، قرأت الرسالة بلهفة: "كل عيد ميلاد وأنت سعيدة.. مع حبي: ميرفت عبد العزيز". تجاهلت غمزات ولمزات زملائها في العمل، الذين تهامسوا حول "حبيب سري"، لا يعرفون أنها هي من أرسلت الباقة إلى نفسها. تحملت همهماتهم لأنهم لن يتركوها تعيش حياتها كما تحب، ما لم تقنعهم أن شخصاً ما في حياتها.

يقول نيتشه: "الوحدة لا تزرع شيئاً، لأنها تجعل الأشياء ناضجة"، لكن ميرفت عبد العزيز تقول إنه لا مكان لمن اختار أن ينأى بذاته في هذا العالم، خاصة لو كانت فتاة. الناس لا يتركونك لتسستمتع بعزلتك أبداً، يكرهون استغناءك عنهم. يشعرون بالعجز والضآلة أمام توحدك في ذاتك واكتفائك بنفسك. يفضلون أن

t.me/qurssan

يقتحموا حياتك، ألا يشعروا أنك متميز عنهم في أي شيء، حتى لو كان هذا الشيء هو وحدتك. لذا يفتشون وراءك، ينقبون في لفتاتك، في همساتك، في إيماءاتك، يخلقون حولك الإشاعات، حتى تضطر للرد عليهم لنفي إشاعاتهم، ساعتها يبتسمون في نصر، فقد أجبروك على الدخول إلى دائرتهم، والحديث معهم. سقطت عنك هالة الوحدة والصمت وأصبحت واحداً منهم.

لكن ميرفت، لا تحب الوحدة تماماً، تفضل العزلة لتقي نفسها شر الذين لا تعرفهم، تميل إلى أن تكون على هامش العالم، وجزءاً منه في الوقت نفسه. أن تخلق عالمها الخاص، حتى لو كان هذا العالم عبارة عن عناكب وتماسيح وبنس شعر ملونة، لكنها تعلم أن هذا العالم ـ عالمها ـ جزء من عالم أكبر، فهي تحتاج لجيرانها كي تحصل على العناكب، تحتاج إلى زميلاتها في العمل كي تحصل على بنس الشعر، تحتاج إلى حكايات المنتديات كي تحصل على الخبرة والتسلية، لكنها في كل هذا لا تضر أحداً، لا تدخل حياة أحد عنوة.

ترى حياتها مختلفة عن حياة أولئك الفتيات اللائي لا يهتممن سوى بنشر صورهن كل يوم على فيس بوك مع تعليق "قمر 14"، أو نشر صور آخر إنجازاتهن في المطبخ، أو آخر خلافاتهن مع صديقاتهن على أيهما أكثر وسامة: جون مالكوفيتش أم وودي هارلسون، أو الاشتراك في مسابقات من نوعية: ما هو أشهر عيوبك؟ ويكون الرد: "الطيبة". ليست من أولئك الفتيات اللائي لا يهتممن سوى بإنقاص أوزانهن، واعتبار أن أقصى ما يمكن

أن يعكر عليهن حياتهن، أن يزدن نصف كيلو جرام. كما لم تكن ترى نفسها واحدة من أولئك الأمهات اللاتي يحفظن أسماء أدوية الكحة والإسهال والمغص وارتفاع الحرارة ومراهم العيون، ومع الوقت يتحولن إلى طبيبات يعرفن أسماء الأدوية والأمراض ووصفاتها، ويجلسن في صالات الانتظار بالعيادات يتناقشن ويمصمصن شفاههن وسط صراخ الأطفال، ثم يتجادلن مع الأطباء في أي الأدوية أفضل لأطفالهن: فسيرالجين شراب، أم أوسبازموتال نقط.

وربما ما فكرت فيه عندما قابلت الرجل ذا الجوربين المختلفين، هو أنه سيكون من الرائع أن هناك أحداً ما يهتم لأمرها، يكسر عزلتها دون أن يتهمها بأي شيء، أو يطلب منها الخروج من قوقعتها إلى العالم، ودون أن يخاف من هالتها الغامضة، خاصة لو كان يرتدي جواربه بهذه الطريقة.

غمزت زميلتها في العمل باتجاه باقة الورد، بعد أن لاحظت شرودها:

ـ صاحب «الورد» جعلك في كوكب آخر؟

قالت ميرفت وهي تمسح يديها في مريلة العمل: أحياناً أشعر أنني من كوكب آخر فعلاً، أو أفكر أن أذهب إلى مجرة أخرى، أو على الأقل أسكن في بيت على حافة العالم، أراقب الناس من بعيد، لا أحتك بأحد، لا أريد شيئاً سوى عالمي الضيق.

صمتت قليلاً، وكأنها تفكر في ما قالته:

ـ كلنا حلمنا بذلك ذات يوم، حتى لو كان الأمر بنسب متفاوتة.

نظرت لها زميلتها باستغراب:

t.me/qurssan

ـ لماذا قلبت الموضوع غماً، أنا أمزح فقط، أشاكسك لأخرجك عن صمتك.
أطرقت برأسها متأملة أصابع البطاطس في طاسة القلي أمامها، ثم قالت وكأنها تعتذر لزميلتها عن جديتها غير الملائمة:
ـ أعتذر، لم تعد لدي قدرة حقيقية على المزاح، ربما صرت كذلك منذ فترة، فقدت سرعة بديهتي، فقدت قدرتي على التعامل العادي مع الناس، أحياناً يلقي سائق التاكسي نكتة، فأظنه يتحدث جاداً، لم أكن كذلك من قبل، كنت أكثر قدرة على تقبل المزاح، وأكثر قدرة على التعاطي مع كل ما يقال، بل كانت نكتتي جاهزة على لساني للرد على الفور، الآن بعد أن أستوعب أن ما يقال مجرد مزحة، أكتفي بالابتسام، دون رد أو دون قدرة على تقديم رد مناسب.
حاولت زميلتها أن تبرر لها، وهي تضع شرائح بصل وكاتشب فوق قطعة هامبرجر في ساندويتش، فقالت بصوت حنون:
ـ لكن الناس تغيرت أيضاً.
وجدت ميرفت في ما قالته تشجيعاً:
ـ ربما. وربما لم أستطع أن أتغير معهم، فظللت كما أنا. أكثر من قفزة في حياتي حدثت خلال السنوات الأخيرة، ربما في إحداها توقفت وعجزت عن إكمال الطريق مع الحياة، فتعطلت قليلاً.
أغمضت عينيها، وهي تنظر إلى الساعة، كم بقى من الوقت لتغادر؟ ليس رغبة منها في المغادرة، أو لأنها ملت من العمل، بل لأنها تريد الانعتاق، أن تنفك من أي قيد، حتى لو كان هذا القيد هو عملها. رفعت عينيها إلى عقارب الساعة مرة أخرى، وكان قلبها يدق مع كل ثانية باقية. تك تك تك تك تك تك. ترررررن.

سأتحدث عنكم ذات يوم
لكنني لن أذكر التفاصيل
سأبدأ الكلام مبتسماً ثم أتوقف
مكتفياً بتقطيبة من جبهتي،
للتمويه بالنسيان
لكنكم تعرفون الحقيقة.

سوداء وجميلة ـ ٢٠١٥

وصلنا إلى المقطع الأخير في هذا الفصل، ولم يحدث شيء ذو بال لميرفت. لم أحقق لها أمنيتها بأن تحدث في حياتها معجزة. ولم أعطها ما يكفي من نقود لشراء سكوتر جديد بدل القديم الذي تحمله في حقيبتها من سنين.

هذه نهاية تقليدية إذن، لكنها الحقيقة، وأنا وعدتكم من البداية أن أقول الحقيقة، حتى لو لم أكن أصدقها ـ أو أريدها ـ شخصياً.

هذه نهاية سهلة، يلجأ إليها المؤلفون عادة لكي ينهوا القصص الغريبة العالقة التي لا يعرفون كيف يكملونها؟ لكن من قال إنني أريد أن أنهي هذه الحكاية، ثم من قال إن هذه القصة غريبة من الأساس؟

بعد أسبوع من بداية هذا القسم، وبينما ميرفت عائدة من العمل

t.me/qurssan

في المترو معقودة الحاجبين، فوجئت بسيدة عجوز تربت على كتفها الأيمن في حنان، أثر ذلك فيها بشدة. نظرت لها العجوز بعينين مجهدتين وقالت وهي تعيد التربيت على نفس الكتف:

ـ الأمور تبدو صعبة في بداية الطريق دائماً يا ابنتي، ستشعرين كثيراً بالوحدة

تساءلت ميرفت:

ـ ثم؟

اختلط صوت العجوز بضجيج الركاب، وهي تهبط في محطة جامعة القاهرة:

ـ ستعتادين ذلك

اعتادت ميرفت على وحدتها وصعوبة أيامها ومللها طويلاً بالفعل، لكن أحياناً تشعر أن من حقها أن تحصل على بعض «الونس» لتكسر هذه الرتابة المقيتة، ذات مرة كانت ميرفت عائدة من العمل ليلاً، ثم عندما لمحت أضواء مستشفى الهرم مضاءة، قررت أن تدخل لتكسر وحدة مريض، اشترت ورداً ودخلت أول غرفة قابلتها، جلست بجوار مريض كان نائماً، تتأمل وجهه الغارق في الحزن والألم محاولة تخمين إصابته ولكنه عندما استيقظ بعد دقائق ورآها أخذ يصرخ بلا انقطاع. جاءت الممرضة تهرول، وظن أهله الذين كانوا يتسكعون بالجوار أنها أرادت سرقته.

تمددت ميرفت على السرير وهي تراقب الرطوبة الناشعة في السقف، وتأملت حياتها: مملة ومتعبة في آن. لا شيء مميز بها. لم تحدث المعجزة التي تمنت. لم يكن أمير كوستاريكا مُخرجاً

لحياتها، لم تكن بطلة مسحورة لإحدى قصص «المكتبة الخضراء»، لم تجد خاتم سليمان.

دارت بعينيها في الغرفة: مرطبانات البنس، العناكب، مجلدات ميكي وميكي جيب على الأرض، فوقها مجلات الموعد وسبايدرمان وبن تن وفتيات القوة، طائرات ورقية كانت تحلق في الفضاء بلا صاحب فأمسكتها واحتفظت بها، صورة حزلقوم على الحائط، بجوار ملصق دعائي صغير لفيلم «يوميات بريجيت جونز - الجزء الأول» قطعته من إحدى المجلات، دولابها البني الصغير. قامت تمشي ببطء ناحيته، تأملت ملابسها القليلة، التي تنحصر في بنطلونات جينز زرقاء، وبلوزات من نفس الدرجة تقريباً، ومدت يدها إلى الرف السفلي، حيث يرقد فانوس قديم.

التقطت الفانوس الذي يشبه مصباحا سحرياً رأته في فيلم قديم لإسماعيل ياسين. مررت يدها برقة على رقبته وهي تبتسم ساخرة من نفسها. لكن لم يخرج من فمه دخان، أو عفريت أو جني، ولم يتحرك خطوة من مكانه، لم يحدث أي شيء على الإطلاق.

أعادته إلى موضعه مرة أخرى، وفتحت شباك غرفتها، وتأملت النوافذ المضاءة في المترو الذي يمرق بالجوار، ولا أحد خلفها. لا شيء سيحدث. عادت إلى سريرها، وهي تفكر أن الرتابة هي معجزتها الوحيدة.

في صباح اليوم التالي، ربما كان السبت حسبما أذكر، لم تشر الصحف في صدر صفحتها الأولى إلى أي شيء عن ميرفت عبد

t.me/qurssan

العزيز، لم يكتب بوب وودورد أو فريد زكريا أو روبرت فيسك قصتها في مقالاتهم، لم يتحدث وائل الإبراشي أو جون ستيوارت أو جابر القرموطي أو لاري كنج عنها، لم يفكر أكيرا كوروساوا أو مارتن سكورسيزي أو فرانسيس فورد كوبولا أن يخرجوا فيلماً عن سيرتها يحصد الأوسكار، لم تضع جارتها البدينة أذنها على باب الشقة وتنصت إلى خطواتها وهي تهبط لتتأكد أنها خطوات نسائية لشخص واحد، حتى بائع الصحف على ناصية الشارع لم يحضر لها نسختها الأسبوعية من مجلة حواء كما تعوّد، ولم يجهز بائع عربة الكبدة العجوز على ناصية الشارع الموازي معاكسته اليومية، «شباح الفل يا عشل»، قبل أن يدرك أن أسنانه الضائعة ستحول بين أن يجعلها تقع في غرامه.

تعامل الجميع مع الأمر باعتباره لم يحدث، بل تعاملوا مع ميرفت عبد العزيز باعتبارها لم تكن، كأنها لم تمر من هذا الشارع، كأنها لم تتعثر في قمامته، وتخترق أذنها شتائم أطفاله لبعضهم البعض وهم يلعبون الكرة، كأنها لم تعد البنسات في رؤوس نساء الشارع، وتعرف ألوان كل واحدة المفضلة. كأنها لم تجمع عناكبهم، وتربيها، أفضل مما يفعلون مع أطفالهم.

لكن من قال إنهم نسوا ميرفت؟ هل مرت ميرفت من هنا أصلاً؟ هل عبرت هذا الشارع؟ هل سكنت في تلك الغرفة العلوية؟ لن يجيبوا على هذه الأسئلة لأنهم سيكونون مشغولين بمسلسلات السهرة وغلاء الأسعار والدروس الخصوصية، والعناكب التي بدأت تغزو بيوتهم، في كل ركن عنكبوت صغير يغزل بيتاً لا

تستطيع كل عصي العالم أن تزيله أو تحركه منه، لن يصدقوا حكاية النجار أسفل البيت عن التمساح الذي رآه يسير في الشارع، ورآه مرة أخرى واقفاً مستنداً على عامود الإضاءة أسفل العمارة المجاورة ويدخن سيجارة مارلبورو أحمر، فمن أين للتمساح بثمن السجائر الغالية.

أسهل شيء عليّ كمؤلف أن أقول إن غرفة ميرفت طارت، أن أكتب أنني ذات ليل فتحت النافذة فرأيت غرفة تطير، غرفة بسقف وأرضية وأربعة حيطان، ونافذتين، إحداهما كانت تطل على المنور لم تفتحها قط. لأول مرة تفتحها ميرفت على الدنيا الواسعة، وتُخرِج الملابس من الغسالة الصغيرة وتنشرها، بينما الغرفة تنتقل بها من سطح إلى سطح، تنتهي من غسيلها، فتحمل عنكبوتها الأكبر، كابن بار، وتشير له من النافذة إلى الهرم، ووجه أبو الهول الصامت، ثم تقترب من بيتي، وتلوح لي بيدها، لا أصدق في البداية، فأتناول النظارة من على المكتب، أضعها على عينيّ بسرعة، وأحدق جيداً، إنها ميرفت بالفعل، ميرفت عبد العزيز، ميرفت التي ظهرت في جميع دواويني من قبل، ولاك سيرتها القراء، وتجاهلها وائل الإبراشي ولاري كنج، ميرفت التي اقتربت بغرفتها التي كانت تحرك اتجاهاتها بيديها كمايسترو يعزف مقطوعته الأخيرة، كساحر يقدم عرضه النهائي، اقتربت حتى كادت تصطدم ببكلونتي، دنت حتى نظرت إلى عينيّ مباشرة، نظرة طويلة طويلة معاتبة، ثم بحركة بسيطة من يدها تراجعت غرفتها، غيرت اتجاهها، وسارت إلى الاتجاه المعاكس

t.me/qurssan

وسط عشرات الطائرات الورقية التي تحلق، ثم إلى الأعلى، حتى اختفت تماماً في السماء، حتى اختفت تماماً من السماء ومن الكتب ومن الدواوين ومن الحكايات ومن ألسنة رواد المقاهي، وربما لم يرها أحد بعد ذلك سوى عم ممدوح وهو يراقب النجوم كل مساء، على سطح بيته في صفط اللبن، متسائلاً عن سر ذلك الكوكب الجديد الذي ظهر فجأة.

أسهل شيء عليّ أن أحكي هذا، لكنني لن أحكيه، رغم أنها الحقيقة.

الفصل الثالث

مؤلف

t.me/qurssan

أمام مقهى سوق الحميدية، حكت لي كاتبة الأطفال والرسامة سحر عبد الله، عن رواية تريد أن تكتبها، يخرج فيها حصان من الموسيقى وينطلق في رحلة طويلة. كانت فكرة مختلفة، أوضحتها بمزيد من الحديث عن نصير شمة وموسيقى الصورة.

كنت قد انتهيت من كتابة فصل ونصف من هذه الرواية، لكني كنت مهموماً بالتفاصيل، قررت ألا أتحدث عن الفصلين والنصف الباقيين إلا بعد أن أنتهي تماماً، خاصة أنني تحدثت من قبل عن رواية كنت أنتوي كتابتها باسم "القارئ والناقد والمؤلف والملاك"، مع صديقيّ الطاهر شرقاوي ونهى محمود، قبل عامين، وكنا في نقابة الصحفيين، ننتظر هبوط أطباق فضائية على السطح، إلا أنني لم أكملها رغم التشجيع.

نهى علقت بحرف واحد مكرر:

ـ امممممممم

وابتسم طاهر ثم صمت، لكني شعرت بأن الفكرة لم ترق لهما، قد تكون سيئة بالفعل، فقررت التوقف عن الكتابة والحكي.

لكن حديث سحر عن موسيقى الصورة أعاد الفكرة إلى ذهني مرة أخرى، فكرت أن أسأل صديقي الروائي محمد الفخراني الذي كان قادماً من ناحية ميدان باب اللوق أنيقاً مهذباً كعادته: "هل القصص تلعب مع العالم، أم تلعب بنا؟"، لكني في الحقيقة كنت مشغولاً، بكائنات الفضاء التي وجدتها أثناء عودتي أمس

t.me/qurssan

في الطريق الصحراوي، حتى أنني سألت السائق:
ـ من أي كوكب هذا الكائن؟
فهز رأسه دون أن يجيب، وهو ما استنتجت منه، أنه إما لا يعرف، أو يخاف عاقبة الكلام.
لم تكن الإجابة وقتها تمثل لي مشكلة، وإن شغلت بالي قليلاً، لكني انتبهت أكثر عندما وجدت أن عامل السوبر ماركت المجاور لمنزلي يطير في الهواء إلى الدور العاشر، لتوصيل الطلبات بدلاً من الصعود على السلم. أرجعت الأمر إلى الصدفة وتعطل المصعد، إلا أنني بدأت أقلق عندما حدثني طفلي، وهو يشاهد قناة Cartoon Network عن الوحش الذي اصطاده من غلاف كتاب المدرسة.
هذا ليس مهما الآن.
فالمهم حقاً، هو هذه الرواية التي لم تكتمل بعد، وتجهيزي أجوبة لأسئلة القراء، والصحفيين بعد أن تصدر، عن ماهية السيارة التي يركبها بيبو، وما المغزى الذي أقصده، لكن السؤال الذي أتحسب منه حتى قبل طرحه هو عن المسافة بين الواقع والحقيقة في هذه الرواية.
لدي إجابة واحدة لكل الأسئلة: الرواية بالنسبة لي كانت مثل ماري الدموية، نداهة تقول: تعال إليّ حتى تنعتق من الهم الذي يسيطر عليك، لكن قبل أن أستطرد يجب أن أحكي لكم عن ماري.
منذ أكثر من مائة عام كان هناك امرأة اسمها "ماري"، وفي يوم من الأيام وقع لها حادث مريع أدى لتشويه وجهها لتنزف

حتى الموت، لكن روحها لم تسكن ليرهب شبحها العالم بأكمله.
وقبل أن نتطرق للأسطورة، يجب أن نعلم أن اسم "ماري الدموية" لم يكن اسماً وهمياً، بل إن هناك ملكة اعتلت عرش إنجلترا لفترة كان يطلق عليها اسم "ماري الدموية" هي "ماري تيودور" المولودة عام 1516 ، والتي حكمت إنجلترا لفترة قصيرة مدتها خمس سنوات فقط (1553-1558) هي ابنة الملك "هنري الثامن" والملكة "كاثرين الأراجونية"، كما أنها زوجة للملك "فيليب الثاني" ملك إسبانيا.. وأطلق عليها هذا اللقب نظراً لأن عهدها القصير الدموي أُعدِم فيه أكثر من ثلاثمائة شخص حرقاً في إنجلترا بتهمة الهرطقة.
هذا ما رواه التاريخ عن "ماري الدموية" أو Bloody Mary، التي احتل ذكرها جزءاً مهماً من الأساطير الأوروبية، واختلف شعوب العالم في وصفها، لكن الأسطورة في النهاية واحدة، أسطورة الشبح الذي يظهر ليؤذيك إن قلت اسمه أمام المرآة عدد مرات معين.
يقولون: "إن وقفت أمام المرآة في الظلام وقلت اسم ماري ثلاث مرات، سيظهر لك وجهها المشوه المخيف في المرآة، وإن لم تسارع بإضاءة النور والهرب ستحاول تشويه وجهك، وربما تسحبك لعالم المرآة، أو يجد أحدهم جثتك وعليها علامات الفزع".
وهناك طرق أخرى لإظهارها كترديد اسمها أكثر من ثلاث مرات عند منتصف الليل، ونثر الغزل في الغرفة، فرك العينين مرة واحدة، وترديد اسمها ثلاثين مرة مع شمعة صغيرة، أو أن

t.me/qurssan

تستدعيها قائلاً: "ماري الدموية، أنا قتلت رضيعك Bloody Mary, I killed your baby"!

هذا ليس كلامي، وعلامة التعجب ليست مني، بل من موسوعة ويكيبيديا، وقد صدقت الأمر، وقفت أمام المرآة، وقلت "رواية"، فخرجت لتلف حبائلها حول عنقي.

لا أستطيع أن أنسى أنني قلت لأصدقاء من قبل أنني لن أكتب رواية مرة أخرى وأنني أعتبر نفسي شاعراً، لكنها الرواية التي خرجت لي من المرآة حاصرتني في الغرفة، سكبت النسكافيه على أوراقي، وعطلت المنبه فلم أستيقظ من النوم لأذهب إلى العمل، فلم أعرف كيف أهرب منها ولم أجد أمامي سوى هذا الكيبورد.

الفقرة السابقة تصلح لأن يكتبها شاعر وليس روائي، لكنني كما قلت لكم من قبل، أُفضّل أن أكون شاعراً، ربما أخدع هذه الرواية قليلاً، وقد أكذب عليها، ليس إلا خوفاً من المرايا التي تطاردني في كل مكان، مثل عناكب ميرفت، والكائنات الفضائية على الطرق السريعة، وصور بن تن على كراريس طفلي، وعلى ملابسه، ومعلومات تعريفية عنه.

هناك عشرة أشياء لا تعرفونها بالمناسبة عن بن تن أومنيفيرس، وهذه فرصة مناسبة لكي أذكرها لكم، حتى لو ظننتم أنه ليس لها علاقة بالرواية.

1ـ النوع: إنسان/ أنودايت.

2 ـ بدأ هذا الصبي عمله مبكراً وهو في سن الـ 11، أراد مالوير، وهو غالفانيك ميشامورف امتصاص طاقة الأومنيتريكس.

3ـ بالإضافة إلى النسخة الشابة من فور آرمز حصل الصبي ذو الـ 11 عاماً على غريب جديد يدعى فيدباك.
4 ـ هذا أمر سري للغاية، لا تخبروا أحداً. اسم بن تن الأوسط هو كيربي
5ـ نقاط الضعف: بن تن الشاب أصبح أكثر حكمة، لكن بن ذو الـ 11 عاماً كان مغروراً ومندفعاً.
6ـ انتصر على دكتور أنيمو.
7ـ يغيظ جوين.
8ـ يا لها من فوضى
9ـ بن لا يخاف من مالوير.
10ـ لكن يوجد مليون ميغاوات قادمين نحوه.
هل ثمة علاقة بين بيبو وبن تن؟ كنت أفكر في إجابة مناسبة، وأتأهب للرد على هذا السؤال، لحظة أن دق الباب. ساعي البريد. Welcome Back. لا أذكر آخر مرة رأيت فيها ساعي بريد، لكني أظن أن ذلك كان في القرية التي نشأت فيها، ربما كانت عندما أحضر لي أوراق قبولي في الجامعة، أو رداً من إحدى المجلات الثقافية على قصيدة أرسلتها لها في غابر الأيام. لكن الرسالة هذه المرة كانت من قارئ. مكتوب على المظروف من الخارج: إلى الشاعر الروائي الشاب: محمد أبو زيد. إذن هي فعلاً من أحد القراء فلا أحد يعرف هذا السر سواهم.
أتعجب من القراء الذين لا زالوا يستخدمون البريد العادي في زمن السوشيال ميديا، والبريد الإلكتروني، لكن لا أخفي

t.me/qurssan

سعادتي بها، لدرجة أني ألوّح للرخ الذي عبر منذ قليل أمام نافذتي حاملاً سندباد قبل أن يلقيه من علٍ فوق هضبة المقطم، فيكسر عظامه.

داخل المظروف وجدت ورقة فارغة، ولم أعرف ما المقصود بها. هل هذا رأيه فيما أكتبه، أم في العالم، أم لم يجد لديه وقتاً للكتابة فأرسل الورقة الفارغة كنوع من التحدي، أم أنها مكتوبة بالحبر السري. في الظروف العادية كنت سأفعل ما تعلمته في القصص البوليسية التي قرأتها صغيراً، وأمرر الورقة فوق موقد صغير محاذراً من أن تشتعل، حتى تظهر الكلمات المكتوبة، لكنني الآن مشغول بالفعل. هاتفي لا يتوقف عن الرنين، ويظهر عليه اسم بيبو.

ماذا يريد مني بيبو في هذه الساعة. لا وقت لديّ. يجب أن أذهب للعمل، يجب أن أتناول حبوب الضغط، يجب أن أقشر السقف، يجب أن أكنس العالم. يجب أن أرد على رسالة القارئ الفارغة. يجب أن أكمل هذه الرواية.

لم تصبح رواية بعد، ولا أعرف ما الذي أريده منها. أكتب فصولها الأربعة بالتوزاي، أكتب في كل فصل قليلاً ثم أتوقف، محاولاً العودة إلى الشعر، فلا أشعر بسريان الشعر في دمي. كان هناك حل واحد فقط أن أقتل شخصيات الرواية حتى أعود إلى حياتي الطبيعية، ولا ألتفت إلى المقعد الذي يجاورني في العمل، فأرى صورة بيبو بدلاً من زميلي الذي تغيب ثلاثة أيام دون أن يقول السبب.

المشكلة أنني فعلاً لا أعرف ما هي الخطوة التالية، ما الجملة التالية. أجلس في صالة السينما لأشاهد فيلماً، وأنتظر اللحظة التي سينظر فيها جوني ديب باتجاهي ويسألني: what do you say?، لكني في الحقيقة لم أقل شيئاً، ولا أريد أن أقول شيئاً، هناك فقط من يحاول أن يستخرج الكلام من جوفي بالرغم مني. الكلام يخرج كأنه خيط حرير ناعم جداً، يسيل ورائي فيما أهرول في شارع مزدحم، يبدو كخيط من النار يحرق من يقترب منه، لكني مشغول حقاً بسؤال الموت والحياة، الحب واللاحب، ولا أعرف كيف أجيب عن هذا السؤال.

وأنا في الصف الثالث الثانوي كنت قد قرأت عدداً كبيراً من كلاسيكيات الأدب العربي، وأكملت قراءة نجيب محفوظ ويوسف إدريس وتوفيق الحكيم، وأذكر وقتها أنني أنهيت رواية "الشارع الجديد" لعبد الحميد جودة السحار، ولا أتذكر ما الذي جعلني أفكر ـ وقتها ـ في كتابة رواية يموت فيها شخص ويولد آخر في نفس اللحظة، لكن فكرة الموت والحياة تستحق دوماً التفكير، لكن أعتقد أن بذرة هذه الفكرة كانت موجودة في تلك الرواية. كانت الروايات في تلك الفترة ذات أفكار واضحة بالنسبة لي. تعرف كيف تبدأ وتنتهي، ونقاط الإضاءة، لكن الآن لا أعرف كيف أنهي هذه الرواية، ربما لأنني لا أعرف فعلاً الإجابة على سؤال الحياة والموت، والحب واللاحب، ربما لأنني فعلاً لا أعرف معنى ومغزى الوجود، ربما وأنا صغير كنت أكثر إدراكاً، كنت أكثر فهماً، هل أصبحت أقل ذكاء، أم صارت الأسئلة أكثر صعوبة.

t.me/qurssan

الدراما نفسها صارت أكثر صعوبة، رغم أن للفن بريقه أيضاً. يعني مثلاً: ماذا لو قرر خالد يوسف تحويل هذه الرواية إلى فيلم سينمائي، ربما تكمن المشكلة بالنسبة لي كراو عليم أنه لا توجد شخصية تلائم سمية الخشاب إلا إذا قررت أن تتنكر في صورة رجل، ولأنه لا يمكن إخفاء سمية في زي رجل، فالأفضل بالنسبة لي، ما دمت أرغب في تحويل روايتي إلى السينما، أن أخلق شخصية نسائية مناسبة، وسيكون اسمها "غادة عبد الرازق"، وهذا الاسم ليس إسقاطاً على ممثلة أخرى.

يتهمني قارئ من هذا الكوكب ومشاهد من كوكب آخر بالكذب، فأبرر له بأنني أكذب لأجل الفن، أنا أؤلف الحكايات المسلية والملغزة. لا أشعر أنني السير آرثر كونان دويل، بل بأنني جون واطسون والرواية هي شارلوك هولمز تسحبني خلفها مبهوراً باللغز الذي لا أعرف كيف أصل إلى حله، وحين أتوقف أو أتعب من طول الطريق، تهددني بالقتل.

تتقافز الرواية في رأسي، تُغير على بطل «أثر النبي» فتسرق وحدته ومشاعره فأشعر أنهما وجهان لعملة واحدة، إحداهما تطوير وإعادة كتابة للأخرى، تجمع ميرفت عبد العزيز من دواويني السابقة، وتلصقها في لوحة بازل كبيرة أمامي على الحائط، تقول للذين يبحثون عن نصوص مبررة: لا تقرءوا هذه الرواية، وشاهدوا أفلام «مارفل»، مع طفلي الأصغر الذي الأبطال الخارقين، لكنه الآن حزين، بعد أن اشتريت له زي سوبرمان كما أراد، ورفع ذراعه إلى أعلى، فلم يطر كما تمنى.

لكن ميرفت طارت، بمساعدة العناكب والطائرات الورقية، غير أنني لا أربي العناكب في البيت. أربي بدلاً منها الشخصيات الروائية في صندوق صغير، أخرجها كل ليل، وأحركها أمامي، وأحياناً أتركها تحرك يدي، فالشخصيات الروائية ـ كما الإنسان ـ لا بد أن تكون مسيرة ومخيرة.

هذا ليس تنصلاً مما سيحدث، وليس خوفاً من أن يرفع أحد أقرباء ميرفت دعوى قضائية ضدي يتهمني فيها بالقتل، ويطالب بشنقي في ميدان عام. لكنني لم أقتلها؟ من قال إنني قتلتها. منذ ظهرت في ديواني الثاني «قوم جلوس حولهم ماء» وأنا أحرص على أن توجد في كل ديوان لي. ثم من قال إن الطيران موت؟ ألم يتمنى كل واحد منكم أن يطير؟ ألم تتمنى أنت ذلك؟ وأنت، نعم أراك جيداً، رغم اختبائك آخر صف القراء متدثرة في بطانيتك، وتقرئين. ألم تتمني الطيران؟ ألم تكتبي ذلك على صفحتك في فيس بوك؟ طيب، ماذا إذن؟

بالنسبة لي كمؤلف، لا أنكر أنني تعبت وأنا أرى كل شيء يتداخل أمامي، أعيد ترتيب الحكاية، أقص مقطعاً، فأشعر بالكلام عالقاً في طرف إصبعي، حتى أضغط paste في مكان آخر، فأحرره، وأفكر في إجابات "العجوز والبحر"، وأسئلة "ميرفت والمحيط الأطلسي"، وعلامات التعجب أمام الواقع والخيال.

في إحدى حلقات برنامج المواهب "أرابز جوت تالنت" Arabs Got Talent، في موسمه الرابع، قدّم أحد المتسابقين نفسه، بأن موهبته أنه "يأخذ حمّاماً"، كان يقصد أنه يغني وهو يقوم

t.me/qurssan

بالاستحمام. وبالفعل دخل "حمّاماً" مغلقاً لا تظهر منه إلا رأسه، وبدأ الغناء وسط انهمار المياه عليه، وسط سخرية لجنة الحكام وضحكات الجمهور.
هذا المشهد، رأيناه من قبل في فيلم "إلى روما مع الحب" الذي أخرجه وقام ببطولته وودي آلن، وكان يقوم فيه بدور منتج أوبرا معتزل يفاجأ بأن متعهد جنائز يتمتع بصوت عذب عندما يغني أثناء "الاستحمام"، ويصبح صوته سيئاً إذا حاول الغناء خارج حدود ذلك، فيقرر أن يقدمه للجمهور على خشبة المسرح، وهو يغني أسفل "الدش"، داخل حمّام متنقل، مثل الذي قدمه متسابق البرنامج الشهير.
لاقي الفيلم نجاحاً كبيراً، ولفتت شخصية "مُغنّي الحمّام" الانتباه، بفنّيتها وطرافتها وغرائبيتها، لكن لم تفعل ذلك الشخصية الحقيقية في برنامج المواهب، هل هذا يعني أن الفن يُضفي هالة على الشخصية، ويمنح متعة إضافية للمتلقي، حتى لو كانت الشخصية غير اعتيادية في الواقع؟
ثمّة مثال آخر. فقبل أعوام أمطرت السماء ضفادع في اليابان، ووقعت أحداث مشابهة تعرف بتسمية "فافروتسكايز" (مختصر السقوط من السماء) في أماكن أخرى حول العالم، حيث حملت زوابع عابرة ضفادع وقناديل بحر، وبعيداً عن التفسير العلمي لذلك، فإن استقبال قارئ الخبر في الصحف كان مختلفاً عن تلقيه لمشهد سقوط الضفادع في الفيلم المهم "ماجنوليا" الذي كتبه وأخرجه بول توماس أندرسون، أو مشهد سقوط الأسماك

من السماء، في رواية هاروكي موراكامي الأشهر "كافكا على الشاطئ".

ربما يبدو الاحتفاء بما يتناوله الفن، رغم وجود مثيل له في الواقع، جواباً على من يقولون أن الحياة صارت أكثر غرائبية من الخيال، وربما يجيب أيضاً على أسئلة حول دور الفن، وما يفعله ويُغيّره، وربما يصلح أيضاً جواباً لسؤال يتكرر لمعظم الكتاب في حواراتهم، عن مدى تقاطع حياتهم الشخصية مع النص الروائي.

لأن الفنان عموماً عندما يعيد تقديم مشهد واقعي اعتيادي، سواء في الشعر أو الرواية أو المسرح أو السينما، فإنما يضيف إليه تلك اللمسة السحرية، التي اسمها الفن، التي تضيف إليه روحاً، تجعله مختلفاً عن ذلك الاعتيادي الذي تعودنا على رؤيته كل يوم، فتحوّله من جثة ممددة على الأرض إلى عدّاءٍ في سباق تنافسي. من حكاية اعتيادية إلى كرة ثلج من الأسئلة تتدحرج على الجميع بحثاً عن الإجابة.

في رواية "لو أن مسافراً في ليلة شتاء"، للروائي الإيطالي إيتالو كالفينو، نجد نصاً مؤسساً بالكامل على الفانتازيا، كان هدفه أن يتحدث عن حقيقة لم يكن بوسعه أن يرويها بأية طريقة أخرى، ويقول كالفينو إن الروائيين "يحكون عن ذلك الجزء من الحقيقة القابع في أعماق كل كذبة، وبالنسبة للروائي كما للمحلل النفسي ليس بالأمر المهم النظر فيما إذا كنت تقول صدقاً او كذباً، لأن الأكاذيب يمكن لها أن تكون ممتعة وبليغة وكاشفة، شأنها شأن أية حقيقة ندعي قولها بصدق".

t.me/qurssan

ما بين الصدق والكذب، الواقع والخيال، يبني الكاتب عالمه، فيبدو كصانع عرائس ماريونيت، قد يضع يد شخصية، مع رأس شخصية أخرى، مع قدم شخصية ثالثة، لكي يصنع شخصية رابعة. إنها لعبة البازل التي تصنع في النهاية شكلاً مختلفاً عندما يكتمل، رغم عاديته في بعض الأحيان. لذا يحدد الشاعر والروائي الأمريكي وليم فوكنر ثلاثة أشياء يحتاجها الكاتب لرسم الشخصية: الخبرة، والرصد، والخيال، معتبراً أن أي اثنين منهم وفي بعض الأحيان أي واحدة منهم، يمكنها تعويض نقص الصفات الأخري.

لا نتحدث هنا عن القصة الواقعية، أو نقل الواقع إلى الورق، فصفحات الحوادث في الصحف تمتلئ بآلاف القصص الواقعية ـ المفجعة ـ والرديئة في كتابتها، وصفحات الأخبار نائمة تحت آلاف الجثث، لكن الفرق بين هذا الواقع، والواقع الذي يقدمه الأدب، هو الفن. تلك اللمسة السحرية التي لا يملكها سوى من ضربته تلك اليد العملاقة التي اسمها الفن.

في رأي فوكنر أيضاً، أن الموسيقي أسهل وسيلة للتعبير منذ أن اُكتشفت بدايةَ في خبرة وتاريخ المرء، "ولكن لأن الكلمات هي موهبتي، فلابد أن أحاول التعبير من خلال الكلمات عن الموسيقي الصافية التي قد تفعل ذلك بشكل أفضل". الموسيقى لا يشبهها شيء، لذا تبدو خارج المنافسة، لكن الكلمات تشبه الحياة، ومن هنا تبدو الصعوبة في أنها تقوم بعمل الموسيقى، وتضاهي الحياة، وتنتصر عليها، وتحولها من قطعة معدن ملقاة

في الأرض إلى طائرة تحلّق في السماء، من ريشة بلا قيمة في جناح دجاجة إلى أداة لنسخ آلاف الكتب ورسم آلاف اللوحات، من امرأة ـ قد تدعى "الموناليزا" ـ إلى لوحة مبهرة تثير آلاف الأسئلة لسنوات طويلة.
الأمر يشبه إلى حد كبير، مغني وودي آلان الأوبرالي، الذي لا يتمتع بصوت جميل إلا بين جدران أربعة وتحت زخات الماء. تستطيع أن تعتبر أن تلك الزخات، وتلك الجدران، هي الفن، الذي يعيد صياغة الاعتيادي ـ أو حتى غير الاعتيادي ـ ويقدمه بشكل مختلف، بحثاً عن جوهره الحقيقي، وإجابة للأسئلة التي يطرحها، الأسئلة التي صدئت لأن أحداً لم يجب عليها من قبل، إن الأمر أشبه بإشعال نار نائمة تحت الرماد في وجه عاصفة قاسية. إنه جوهر الحقيقة، الغائص في عمق الكذبة.
لا يوجد شيء، في ظني، اسمه أن الواقع أكثر خيالاً من الفن، لأن الفن قادر على جعل الحياة ـ بحكاياتها الغرائبية والعادية ـ أكثر جمالاً، والأهم: أكثر احتمالاً.
أنتم تعرفون أن أصعب ما في الحكايات غير المسلية، كهذه، هو أن تصدقها، وهذا الجزء بالذات سيكون مزعجاً بالنسبة للقارئ ولي بشكل شخصي، لا أحب أن أروي عادة سير الأشخاص الذين يسوقون لأنفسهم أنهم عالمين ببواطن الأمور، لأنهم يتعاملون معي، كراو عليم، على أنهم يعرفون أكثر، وأنا كراو عليم بإمكاني قتلهم في أية لحظة، وسأقول إن هذا حادث قضاء وقدر، هذا الشيخ مثلاً الذي يتحدث عبر الفضائيات، مثلا، وأقنع هدير

t.me/qurssan

أن تتحجب، تم تنتقب، ستقتله سيارة، وهو خارج من المسجد ولن أسمح لأحد باتهامي أنني السبب وراء الحادث. لأنني أصلاً لا أعرف أحداً اسمه هدير. لكن القضاء والقدر، ودراما الحياة أحياناً تكون أقوى منا، وأقسى مما نتوقع.

أضع القلم الآن ـ الأدق: أرفع يدي عن الكيبورد ـ بعد أن تعبت من الكتابة، أغلق الكمبيوتر، أنظر من النافذة وأنا لا أعرف ما الذي يريده هذا المجنون الذي يدور حول منزلي بسيارة متهالكة.

الفصل الرابع

سيارة

t.me/qurssan

restat

(7)

الظلام..

الظلام..

أغلق عينيه، ثم أعاد فتحهما، لكن لا شيء غير ظلام حالك السواد.

تمهل قليلاً، حتى اعتادت عيناه العتمة. شيئاً فشيئاً بدأ يتعرف على الأشياء من حوله. يجلس في سيارة صغيرة تنطلق مسرعة في نفق طويل مظلم. لم يقد واحدة من قبل، لكنه يجد يديه على المقود، وقدمه ملتصقة بدواسة الوقود. تشبث خائفاً بعجلة القيادة محاذراً أن تصطدم بالجدار، حاول أن يرفع قدمه ليضعها على المكابح بلا جدوى، ثم أدرك أنها تسير من تلقاء ذاتها، وتعرف طريقها جيداً.

تأمل السيارة مجدداً، مؤشر البنزين يشير إلى امتلائه، ولا يتناقص أبداً، المكيف يعمل بقوة لدرجة أنه بدأ يرتجف من البرد، في المرآة الأمامية، لمح الملاكين على كتفيه، وقد تجسدا بشكل أكثر وضوحاً، يغطان في النوم، وقد ارتفع شخير ملاك الكتف الأيسر. حقيبة ملابسه البنية ملقاة على المقعد الخلفي، بجوار كومة كتب وقف فوقها تأبط شراً في قفصه، يتأمل الظلام في الخارج صامتاً. هاتفه وكمبيوتره المحمول وألبوم صوره ونوتة

t.me/qurssan

سوداء فارغة على المقعد المجاور، وبجوارها ثمة أشياء أخرى لا يعرف من صاحبها: علبة سلامون، عبوة كوكاكولا من الحجم العائلي، كيس تمر كبير، شريط أغاني لهاني شاكر، «ووكمان» صغير، قلامة أظفار، وعباءة. فلاشة ممتلئة بالأغاني مغروسة في السيارة، وتنطلق منها أغنية لوجيه عزيز، لا يعرف كلمات الأغنية، لكنه يذكر أنه قال لميرفت ذات يوم "اسمعيها"، فلم ترد. كل احتياجات حياته البسيطة في سيارة تتحرك لا يعرف إلى أين. تأمَّلَ المقطع الأول من الجملة السابقة. توقف لحظة: هل كل حياته بالفعل في السيارة؟، هل هذه الأشياء هي كل حياته؟، هل هذا كل ما عاش من أجله، هل هذا كل ما يساويه في هذه الحياة، أم كل ما يريده؟، فكر في الفراعنة عندما كانوا يدفنون أغراض الميت معه حين يموت حتى تبعث معه، فهل هذه أغراضه التي دفنت معه؟، لكنه لا يذكر أنه مات؟ كيف جاء إلى هنا إذن؟ آخر ما يذكره: ظهيرة 9 مايو، أصوات عالية متداخلة في الهاتف، نجوم تهوي وتضيء حوله، ملائكة يفرون من الانفجارات، ثقل على كتفه الأيسر، محاولة لضبط النفس والتنفس، ثقل مماثل على كتفه الأيمن، وجه ميرفت عبد العزيز، الرقم الذي تحاول الاتصال به غير موجود في الخدمة، غير موجود في الخدمة، غير موجود، يعتصر الهاتف بقوة، وهو يحاول تمالك أعصابه، بينما يمر سريعاً في شارع مصدق. لا يعرف ماذا حدث بعد ذلك، كل ما يذكره أن كل شيء أظلم فجأة حوله، ربما فقد وعيه، ربما غفا ثم استيقظ ليجد نفسه هنا.

ما الذي جاء به إلى هنا؟
جدته كانت تقول، عندما تدعو لشيء ويتحقق: إن أبواب السماء مفتوحة، فهل كانت أبواب السماء مفتوحة لأمنياته وأحلامه القديمة، وهل ستتحقق الآن؟ بدأ الأمر بأمنية طاردته منذ كان صغيراً، ألا يقضي ما تبقى من عمره في قريته التي يعرفه جميع من فيها، كان عالمه صغيراً في البداية، فحَلِمَ بـ "عشة" صغيرة بعيدة على حدود بحيرة البرلس مع البحر الأبيض المتوسط، سريره الأرض وسقفه السماء. يصيد السمك ويقضي يومه في رعي الغنم ومطاردة دجاجاته حتى يتعب، ثم يذهب للنوم متأملاً النجوم التي تضيء فوقه.
تطور الحلم مع نموه الفكري والعمري؛ في فترة المراهقة حينما اتجه للدين هرباً من الغواية، أراد أن يسكن فوق جبل عالٍ، في كهف صغير، مثل الذي يقرأ عنه في قصص القديسين والرهبان والأولياء الصالحين، لا يفعل شيئاً سوى أن يصلي لله ويدعوه أن ينقذ الأرض، يربي ماعزاً صغيرة يشرب حليبها، ويتجول بصحبتها في الجبل، يكتشفان معاً مدقاته، يسبحان الله ويشكرانه على نعمته، حتى يجيئه الموت وهو ساجد. في مرحلة أخرى من المراهقة حلم بالعاصمة الصاخبة حيث يصبح مجرد رقم من ملايين الأرقام التي تعيش هناك، ولا تعرف بعضها بعضها.
بعد أن انتقل للعيش في القاهرة، وظن أنه حقق ما أراده بالعيش وحيداً بعيداً، تبدّل حلمه، بسبب كراهيته للضجيج والزحام، فحلم بخيمة صغيرة في الصحراء، تطل على واحة، لا شيء حوله سوى

t.me/qurssan

الرمال، ونخلات شامخات، وبئر صغير، وجنية سمراء تخرج له من البئر، وتجار يمرون عليه يبيعونه بعضاً مما يحملون من الحرير والكتب مقابل بعض الإبل التي يربيها، والفواكه النادرة التي يزرعها، سيرفض في أحيان كثيرة أن يأخذ مقابلاً لدرجة أنهم سيسمونه «بيبو الطائي» لشدة كرمه.

ذبلت الأحلام مع دورة الحياة اليومية والانهماك في العمل، لكنها عادت تطل برأسها مرة أخرى بسبب ميرفت، أراد أن يهرب من قلبه على وجه الدقة، هذا الذي تضخم داخل صدره، فأصبح ينغزه كسكين كلما تحرك، كلما لمح شيئاً يشبهها، كلما سمع اسمها أو نطق به أو نادى به شخصاً آخر بالخطأ، كلما جرب أن يهاتفها، أو سمع صوتها عبر الهاتف، أو لم ترد على اتصاله. أصبح يكره الحب. لكنه لا يكره ميرفت. يريد أن يهرب من الحب، لكنه لا يريد أن يهرب من ميرفت. يريد أن يبتعد عن كل شيء، فأين ذهب به حلمه هذه المرة؟

عشرات الأسئلة تتكاثف في رأسه، هل يفتقده أحد في الخارج؟ هل سينشر إتش صورته في صفحة "خرج ولم يعد" بجريدة "الجمهورية"؟ هل سيبحث عنه علاء الدين؟ هل سيضع عم ممدوح كوب شاي بالحليب على منضدة فارغة، كل يوم في انتظاره، ثم يقف دقيقة حداداً. لماذا يسأل هذه الأسئلة، وكأنه مات، أو ذهب إلى مكان لا رجوع منه، من الممكن أن يكون حلماً ويستيقظ منه، لكن تأبط شراً قاطعه وكأنه قرأ أفكاره: "الأحلام بالأبيض والأسود، لكنك ترى كل شيء حولك ملوناً"

فرِح لأن الببغاء نطق أخيراً، لكنه ظل يفكر كيف سيخرج من هذه الشرنقة، من هذا النفق، من هذا السجن؟ وهل هذا سجن؟ ولماذا حبسوا تأبط شراَ إذن؟ ما الجريمة التي ارتكبها الببغاء الأحمق المسكين؟

لم يعرف الإجابة، لكنه ضيّق عينيه مترقباً حين رأى ضوءاَ في نهاية النفق.

t.me/qurssan

(6)

ما إن خرجت السيارة من النفق، حتى فتح بيبو عينيه منبهراً، جبال عالية من الثلج وندف بيضاء تتساقط على الطريق الإسفلتي المفتوح أمامه، وسماء صافية، ومع ذلك بدا له الجو في الخارج دافئاً.

زادت الألغاز لغزاً، مع شعوره أن كل ما حوله غير حقيقي لكنه مصنوع بعناية، كأنه ديكور مسلسل ضخم، كأنه مشهد من فيلم "ترومان شو"، كأنه عالم "westworld"، كأنه لعبة "بلاي ستيشن" لقيادة السيارات علق فيها، ولا أمل له في الخروج من هذا المستوى سوى بتجاوزه ، وإلا فـ game over.

شيئاً فشيئاً أدرك أن هذا التشبيه صحيح إلى حد كبير، بعد أن بدأت تتضح له معالم الطريق، التي تتبدل طوال الوقت ما بين جبال ثلجية ومدن مغسولة، وطرق صحراوية، وساحة سباق. مد يده محاولاً تشغيل الراديو لكنه لم يعمل، لكنه اكتشف زراً أسفله يتيح له أن يغيّر الطريق الذي يسير فيه.

على شاشة صغيرة ظهرت له الاختيارات:

- الطريق الجبلي
- الحي الشعبي
- سباق المدينة

t.me/qurssan

ـ الحرب الأخيرة
ـ الطريق الصحراوي
ـ طريق النهر
ـ الجزيرة
ـ المجرّات الفضائية

كل ما حلم به طوال عمره تحول لخيارات أمامه. لكنه رغم ذلك وجد نفسه يشعر بالاشتياق لأن يرى الناس، ولم يكن ذلك ذلك متاحاً إلا في "الحي الشعبي"، فضغط عليه بإصبعه على الفور. للحظات شعر أنه يسير في طريق ضبابي، فرفع قدمه من على الوقود، لتنخفض سرعة السيارة تدريجياً، وتستجيب لحركته لأول مرة، قبل أن يتضح الطريق رويداً ويجد حوله سوقاً شعبياً ممتداً إلى أبعد مما يصل نظره.

بدا السوق كما تخيله طول عمره، أو كما يجب أن يكون. طريق مرصوف على الجانبين، لكنه ليس نظيفاً تماماً، على جانبيه محلات صغيرة للباعة، باعة الفواكه والخضروات، وباعة الكتب والصحف، باعة الفول والطعمية والوجبات الشعبية الجاهزة، وعلى ناصية كل تقاطع يقف بعض الباعة بجوار عربات خشبية صغيرة رصوا عليها الفواكه أو الخضروات على شكل هرم، وغرسوا في أعلاه عصاً بالسعر، فبدا كعلم سفينة عملاقة.

شعر بالبهجة عندما اخترقت أنفه الروائح القادمة من حوله: الطعمية الطازجة، والمخلل، وروث محلات بيع الطيور، والجزارات، ومحلات العطارة، روائح قوية تقتحم مسامه فتبعث

في جسده الحياة. شعر ببهجة أكثر عندما وصله ضجيج الشارع المحبب، أصوات الباعة الجائلين، ومحلات بيع شرائط الكاسيت، وباعة الدجاج.

لا يعرف إذا كان قد مر في هذا السوق من قبل أم لا، لا يعرف إذا كان قد رأى هذه الوجوه أم لا، لكنه يشعر أن كل ما يراه هو تجميع لكل الأسواق الشعبية التي رآها في حياته، حتى تلك التي رآها في الأفلام أو قرأ عنها في الروايات، هل هذا حقيقي إذن؟ حقيقي بالتأكيد، وإلا فلماذا يشعر ويشم ويسمع كل شيء بوضوح يبعث على السعادة.

ابتهج عندما بدأ يتعرف على بعض الوجوه في الخارج، على مقهى مواز لمح عم صبحي الكفيف، حارس المستشفى، يتسلى بحل الكلمات المتقاطعة، سائق الباص الذي يركب معه دائما يقود دراجة والناس مسحوبين خلفه في سلسلة تضمهم جميعاً، خبراء تنمية بشرية شاهدهم في التلفزيون يرتدون ملابس رسمية لامعة ويبيعون نصائح في قوارير مثقوبة.

أراد بيبو الترجل، فوجد دواسة الوقود تنفصل عن باطن قدمه، ثم اصطفت السيارة من تلقاء نفسها إلى جانب الطريق في مدخل إحدى الحارات الجانبية.

قبل أن يفتح الباب، التفت إلى تأبط شراً يسأله إذا كان يريد شيئاً من الخارج، لكنه فوجئ بملاكي كتفيه الأيمن والأيسر يقفزان من على كتفيه إلى المقعد الخلفي، ثم قالا بصوت واحد:

ـ لا نستطيع أن نخرج معك.

t.me/qurssan

ارتبك بيبو عندما شعر بخفة مفاجئة على كتفيه، ولكنهما أخرجاه من ارتباكه بأن مدا يديهما إليه للتحية.
ابتسم الملاك الأيمن وهو يشد على يد بيبو:
ـ سامي من البساتين
فيما عصر الملاك الأيسر كفه وهو يقول في جدية:
ـ مملوك من القلعة
ابتسم بيبو مجاملاً:
ـ نحن جيران إذن، أسكن بالقرب منكما في «السلطان حسن».
ثم سألهما وهو يغادر السيارة:
ـ هل أحضر لكما شيئاً للإفطار؟
قال سامي وهو يشير إلى الطعام في المقعد الأمامي: لدي ما أحتاج.
فيما تحجج مملوك قائلاً: لا آكل إلا الملوخية.
هز بيبو رأسه متفهماً، ثم ترجل من السيارة وهو يدور بعينيه في السوق. كل ما حوله حقيقي، لكنه يشعر أن شيئاً يجعله يسير بمحاذاة الشارع وليس داخله، لا يشعر أنه جزء من حركة الناس، كأنه يمر في فاصل خفيف يفصله عن جانبي الشارع، فلم يشعر أنه يحتك بأحد من المارة وسط الزحام، شكل المباني والفواكه والخضروات على العربات وفي صناديقها أمام المحلات كما تبدو في محلات الألعاب تماماً، نظيفة وبراقة. الناس يبدون كذلك أيضاً، أما أصواتهم فمعدنية إلى حد ما.
شعر بالجوع، فتوجه إلى محل فول وطعمية، رفع البائع رأسه

إليه، فاكتشف أنه زميله في العمل إتش، ابتسم له لكن إتش رفع عيني بائع متسائلتين، فأدرك أنه لم يعرفه. هل تغيرت ملامحه؟ لا بد أن يدقق أكثر في مرآة السيارة حين يعود، طلب ساندويتشي طعمية ساخنة بدون سلطة.

ـ ها.. ساخنة.

كرر الكلمة مبتسماً، لكن إتش كان مشغولاُ بسحق الطعمية داخل السندويتش ووضع الطحينة فوقها. جال بيبو بعينه في المكان، فوقعت عيناه على ناظر مدرسته الابتدائية، يجلس على مقعد صاحب المطعم، مرتدياً جلباباً، ومنشغلاً بمتابعة مباراة كرة قدم على هاتفه.

تناول بيبو الساندويتشين ملفوفين في ورقة من صحيفة «الجمهورية»، ثم عاد إلى السيارة. في طريقه أخذ يتأمل المحلات على الجانبين، اكتشف أنه يعرف عدداً كبيراً من الباعة، بعضهم زملاؤه في العمل، وبعضهم الآخر ربما قابله في المترو أو على المقهى، أو في جنازة أو في صلاة الجمعة حين كان طفلاً.

في حارة جانبية لمح «يوم الجمعة» يتسلق عامود نور، صاعداً إلى بلكونة منزل يلوح من خلالها لأطفال يحملون الفوانيس ويغنون لعيد ما، أفيش فيلم جديد لأودري تاتو لم يشاهده من قبل معلق على حائط، بجوار وجه كيت وينسلت الذي يطل من خلف نافذة مغلقة بحديد ضيق كالسجن، وهي منهمكة في تعلم القراءة، مستر بين يحاول إغلاق سيارته بقفل معدني، فأر يطارد قطاً وكلب يطاردهما. على ناصية الشارع الذي ركن فيه السيارة لمح

t.me/qurssan

عم ممدوح واقفاً بجوار عربة بطاطا، تلاقت نظراتهما فتهلل وجه عم ممدوح الذي تعرف عليه على الفور

ـ أين أنت يا أستاذ؟

حاول بيبو أن يقول شيئاً، أو يسأله عن سبب وقوفه هنا وتركه المقهى، لكن الكلام خرج من فمه بلا صوت، هز عم ممدوح رأسه في أسى، واستأنف كأنه فهم سؤالاً لم يقله بيبو:

ـ البلدية.. الله يخرب بيوتهم.

ثم أشار إلى رجل يقف بجواره أمام عربة مماثلة بجواره

ـ هذا عم صالح، هل تذكره؟ إنه يبيع قنوات يوتيوب، هل ترغب في شراء شيء؟

همهم بيبو بصوت غير مسموع بما معناه: «سأعود إليك فيما بعد»، ثم لوّح بيده وهو ينصرف.

جلس بيبو على مقعد السيارة يلهث كأنه أنهى ماراثوناً للجري، حتى انتبه على صوت تأبط شراً:

ـ حمداً لله على السلامة

التفت بيبو إليه كأنه فوجئ بوجوده، فقفز الملاك الأول على كتفه الأيمن، والثاني على كتفه الأيسر، أخرج الساندويتشين، قسم واحداً ثلاثة أجزاء ووزعه على الببغاء والملاكين، الذين قبلوه بعد تمنع، وأخذ يلتهم الثالث. وعلى الرغم من الرائحة الشهية للساندويتش إلا أن طعمه بدا غريباً، لم يكن هناك طعم أصلاً، بدا كمن يلوك قطعة من البلاستيك، أويبتلع كرة من القطن، لكن شعوراً بالشبع بدأ يتسلل إليه.

تحول كل ما شاهده بيبو في السوق إلى غابة من الأسئلة تكاد تعصف برأسه، بينما السيارة تقطع الشارع، الذي بدا كأنه جزء من جزيرة قديمة وصفها أفلاطون ذات يوم، تحيط بها أبنية دائرية، بعضها من الطين والبعض الآخر من الماء.

بدت كل المحلات متشابهة، ولا شيء مختلف، بل بدا له أن المناطق التي يمر بها تتكرر، بنفس الباعة، والمشترين، بنفس حركة المارة أمام سيارته، ونفس النكات التي تتسلل إليه من الخارج، الروائح نفسها بترتيب شمها.

نظر في مرآة السيارة، فوجد ملامحه كما هي لم تتغير، ما عدا ظهور بعض الشيب في الفودين، وبعض التجاعيد الخيفة أسفل عينيه وفي جبهته، أسند رأسه للوراء قليلاً فغفا، تاركاً السيارة تكمل الطريق وحدها، قدمه على الوقود، ويده على المقود، وعيناه مغمضتان. لم يستيقظ إلا على رنين مفاجئ من هاتفه، فتح عينيه مندهشاً، كان اسم ميرفت يومض على الشاشة.

t.me/qurssan

(5)

«صباح الخيغ»

صوتها المميز، دلاله، رنته التي يتخيلها مطلع أغنية، حيويته التي أشعرته أنه عاد للحياة مرة أخرى. لأول مرة يشعر أن قلبه يتحرك منذ وجد نفسه في السيارة، بل يكاد أن يقفز خارج فمه فأغلقه بيد، وأمسك الهاتف بيد أخرى، لدرجة أن ميرفت كررت عبارتها، بصوت مستغرب لأن الرد لم يصلها:

ـ قلت « صباح الخيييغ»

أخيراً رفع يده من فوق فمه، فخرج صوته متحشرجاً.

ـ «أين اختفيت؟»

بهذه الجملة بدأت ميرفت محادثة لم تنته لأيام طويلة، بينما تنبعث من السيارة موسيقى أكورديون مبهجة. يتبادل الشمس والقمر مكانهما والمكالمة مستمرة،. تسكت الرياح ويسقط المطر وحبل الكلام ممتد، تشتد الحرارة وتختبئ الطيور في أعشاشها والحديث لا ينتهي، تتبدل المشاهد في الخارج، يتلاشى السوق الشعبي من حول السيارة، يتمدد نهر طويل على اليمين، يقابله جبل عال تزينه الخضرة على اليسار، وفتاة ترتدي تنورة قصيرة، وبلوزة دون أكمام وتضع سماعات ووكمان في أذنيها وشعرها في ضفيرة واحدة يهفهف خلفها تقود دراجة سباق كبيرة على

t.me/qurssan

طريق أخضر مرصوف أسفل الجبل. لم يضغط أي زر، لكن تغير ما حوله بمجرد أن بدأ الحديث، تنتهي المكالمة لتبدأ أخرى بعد استراحة قصيرة، أو بعد ساعات النوم على أقصى تقدير.

«صباح الخيغ».

لا يذكر كم عدد المرات التي سمع فيها هذه الجملة منها بطريقتها المميزة، لكنه مستعد لسماعها آلاف المرات الأخرى، لأنها تضفي شيئاً مميزاً على العبارة الاعتيادية، لم تكن تنطق «الراء» غيناً من قبل، لكن هذه اللثغة الخفيفة منحت صوتها جمالاً خاصاً. الآن فقط يفكر أنه يحب سماع صوتها، لا هذا ليس دقيقاً، الأصح أنه يكتم دقات قلبه بصوتها، بالراحة التي تتسلل إليه عندما تهاتفه.

لا يعرف كم استمرت المكالمات. لكنه يذكر أنه كان يخرج من موضوع إلى آخر، ويعرج من قضية إلى أخرى، للأمانة الأدبية لم يتحدثا عن الحب. تحدثا في كل شيء آخر: السياسة والفن والأدب والسينما والأبراج والأغنيات الكلاسيكية ورقصات مايكل جاكسون وصوت مارلون براندو في العرّاب ونبوءات نهاية العالم، وأخلاق بنات اليوم ورجولة شباب الجيل الماضي، والتغير المناخي وحرب المياه والتسرب من التعليم، وأسراب القريدس التي تحمي صغارها من هجمات السلطعون المتكررة، ونظرية النسبية والكواكب الجديدة المكتشفة، وتشاركا حلم السكن في كوكب آخر.

في أي شيء تحدثا المرة السابقة؟ لا يملك إجابة محددة لكنه لا يمل ولا يكل من الحديث معها. لا شيء له قيمة إلا إذا تحدث

معها عنه. لا شيء مهم ما لم يتناقشا بخصوصه. حتى الأشياء التافهة ناقشاها، اتفقا واختلفا ثم يوافق على رأيها.
أحب لزماتها وأصبح ينتظرها، لثغة الراء المحببة، الجدية التي تخبئ خلفها نكتة ستضحكه بعد قليل، طريقة اندهاشها، أسلوب حكيها، افتتاحيات حكاياتها، تقليدها للكنته الساحلية.
عندما يتصل، تقول له: ميييين؟
يرد على الفور: أنا بابا نويل.
فتعيد ميرفت تقليده بنطق الجملة بطريقة أخرى، بطريقة مضحكة. تضحك، تتقطع ضحكتها كموسيقى غير مكتملة، كأنامل تجرب أصابع البيانو.
ـ وأنا طفلة كنت أصدق أن هناك بابا نويل، لأنه يأتي المدرسة يوم الكريسماس ويعطيني الهدية التي تمنيتها طوال العام، لكن عندما كبرت عرفت أن أمي من يفعل ذلك، تحضر الهدية، تعطيها للمعلم الذي يرتدي زي بابا نويل، وتطلب منه أن يهديها إلي.
تحكي وينصت:
ـ في ليلة رأس السنة، عندما أمر من ميدان ربما يشبه ميدان تريومف، وأرى بابا نويل واقفاً أمام أحد المحلات، أطلب من ماما أن أذهب وأحتضنه، لأني أحبه. بعد أن كبرت عرفت الحقيقة.
لا ترد على الأسئلة العقلانية التي لا تتناسب مع عقل طفلة من نوعية: "ألم تلاحظي أن وجهه يتغير كل عام"، و"متى اكتشفت الحقيقة"، لا تجيب، وربما تهرب من الإجابة.

t.me/qurssan

احتفلا بكل الأعياد والمناسبات معاً: عيد ميلادها، عيد ميلاده، الهالوين، عيد الجلاء، عيد العمال، عيد الفلاح، عيد وفاء النيل، عيد ميلاد بطوط، رأس السنة. قبل الثانية عشر بدقائق، تطلب منه أن يغلق الهاتف، كي تتصل به مجدداً بعد دقات ساعة منتصف الليل لكي يبدءا العام الجديد معاً، لا ينتظر اتصالها، يقوم هو بالمبادرة:

ـ happy new year

يكررها بصوت طفولي، فرح، فتضحك ، فيضحك سعيداً لأنه لم يتوقع أن تكون في حياته لعام آخر. هو في مكان، وهي في مكان آخر، يحتفلان معاً بالعام الجديد، عبر الهاتف.

قبل أن يغلق الهاتف يقول لآخر مرة

ـ happy new year

اكتفى بيبو من الدنيا بالسيارة التي تحبسه بين جدرانها، لكنه يشعر مع ذلك بحرية كبيرة. لذا يمكن القول إنه خلق داخلها حياة موازية، استغنى بها عن كل ما في الحياة. يتصفح مواقع التواصل الاجتماعي على الهاتف، يشاهد فيلماً أو يقرأ كتاباً إلكترونياً على الكمبيوتر، يسمع أغانيه المفضلة من فلاشة مغروسة في السيارة، يلعب أنجري بيردز وزوما وسوبر ماريو وشطرنج وسوليتير على هاتفه، يأكل ويشرب طعاماً معلباً في المقعد الخلفي، يقلب ألبوم صوره التي يظهر فيها جميعاً وحيداً، إذا ملّ تجاذب أطراف الحديث مع سامي ومملوك أو يمرر الوقت بلعب الورق معهم، وربما يترك الفرصة لتأبط شراً ليلقي قصيدة للمتنبي.

لكن الحقيقة هي أن ما جعله يحب حياته الجديدة، ويتوقف عن التفكير في كيفية مغادرتها، أن معظم وقته فيها يقضيه مع ميرفت، أن وجوده داخلها أصبح يرتبط ارتباطاً شرطياً بميرفت. يشعر أنه لو غادرها قد يفقدها مرة أخرى. يستيقظ على هاتف منها، يظلان يتحدثان معظم اليوم، حتى يأتي وقت النوم، فينام، ويستقيظ ليهاتفها. وهكذا تمضي الأيام التي لم يعد يعدها ولا يهتم بذلك. يدور بالسيارة في شوارع لا تحصى فلا يشعر بالطريق لأنه مستغرق في حديث طويل. لا يشعر بالجوع أو بالعطش طالما يهاتفها. كأنه اكتفى بها عن كل ما عداها.
تغير بيبو، ذابت شخصيته في شخصيتها، أصبحت غايته من كل ما يفعله أن يسعدها، أن يضحكها، أن يرضيها، أن يلبي اهتماماتها. تخلى عن اهتماماته في المقابل، عن الأشياء التي يحبها. يدخل على مواقع الأبراج من خلال هاتفه، يراجع ماذا يقول برجها وماذا يقول برجه، وهو الذي لم يكن يصدق هذا الهراء من قبل، يتصفح جروبات النكات ليروي لها واحدة جديدة، يصبح خبيراً في الديكور والموضة والطبخ ليفتح معها مواضيع جديدة، يقرأ عن تفسير الأحلام، ليفهم أحلامها.
في الحلم، تسلم عليه، بينما يستند إلى السيارة، يقول لها:
ـ كيف تسلمين على بابا نويل بهذه الطريقة؟
فتضحك.
حين يرن الهاتف، بعد استيقاظه، ويسمع صوتها المميز، ذو الرنة المبتهجة المشاغبة:

t.me/qurssan

ـ ميين؟
يقول لها: كيف تسلمين على بابا نويل بهذه الطريقة؟
ثم يروي لها الحلم كي تفهم.
كانت الأحلام تحدد مجرى أيامهما. في يوم رفضت الرد على هاتفه. جرب مرات عدة، ترد عليه غاضبة بعد فترة، لأنها رأته في حلم يخونها. وهو محبوس في هذه السيارة؟ كاد أن يضحك. لكنها كانت تتحدث بجدية شديدة، فأخذ يحاول إقناعها بأنه لا يعرف أحداً سواها، قالت له: إنها رأته في الحلم يجلس مع صديقة أخرى لها لا تحبها، وإنها تعتبر هذه خيانة. لكنها ستسامحه لأنه لا يعرف هذه الصديقة بالفعل.
ينتهي يوم ويبدأ آخر، ينام ويستيقظ، يصير الهلال قمراً ثم يعود بدراً مرة أخرى. تذهب الشمس وتجيء العواصف. لكنه يواصل الحديث في الهاتف. يتذكر أن جميع مكالماته فيما مضى لم تكن تتجاوز نصف الدقيقة، الآن أصبحت حياته معلقة بالهاتف. ينتهي شحنه فيصله بالسيارة ويواصل الحديث، حتى أدرك فجأة أنه يتحدث لكن لا أحد على الطرف الآخر:
ـ ميرفت؟
يذهب الصوت ولا يعود بالرد
ـ ميرفت؟
يكرر النداء بصوت أعلى، ولا يجيبه أحد. هل كان يتحدث كل هذا الوقت إلى نفسه؟ يغلق الهاتف، يحدق في الطريق أمامه يكتشف اختفاء النهر، تصعد السيارة طريقاً ملتوياً في الجبل، يركنها أمام ماكينة مشروبات ليحضر كوب شاي. يفكر في الفتاة التي لا تزال تقود الدراجة أسفل الجبل، وشعرها يهفهف خلفها رغم سكون الجو.

(4)

بيبو يحب ميرفت. ربما يكون هذا مبرراً كافياً لكي تنتهي هذه الحكاية.

بيبو لم يدرك أن النهاية قادمة، إلا عندما سألته ذات مرة عن موقف محرج مر به في طفولته، ثم أضافت مازحة: "قل لي الحقيقة، أنا مثل أختك".

فهز رأسه كأنه يؤكد لنفسه على كلامها، وعلى أن العلاقة انتهت. لكنه رغم ذلك لم يستطع أن يحد: هل كانت تمزح أم تتحدث بجدية؟ يعرف أن كل الفتيات يقلن الأشياء الجادة عن طريق المزاح. فهل أرادت أن تدس هذه الجملة في حديثها لأنها شعرت أنه يحبها وأرادت أن تخبره بموقفها من ذلك دون أن تحرجه؟ بينه وبين نفسه يعرف أنه لا قصة حب بينهما. هو لم يعترف لها بأي شيء، وهل لم تقل له شيئاً، بالرغم من مهاتفاتهما اليومية الطويلة، بل لا يظن أنها أحبته أصلاً، رغم أنه يحب أن يوهم نفسه بذلك أحياناً.

لم تنته مكالماتهما اليومية رغم ذلك، فقط أصبحت مزعجة بالنسبة له، خاصة مع سخريتها مما تسميه رومانسيته تجاه العالم، «الرومانسية الفجة التي لم تعد تناسب حتى الأفلام» كما قالت له مرة، قبل أن تضيف:

ـ لماذا تصر أن تعيش في فيلم أبيض وأسود؟

t.me/qurssan

قالتها من قبل بصيغ مختلفة، لكنه لم يكن ينتبه:
ـ أليس هذا فيلم عبد الوهاب؟
ـ فاتن حمامة كانت طفلة في هذا الفيلم، على فكرة.
في البداية كان يبتسم محرجاً، لكن بعد ذلك أدرك أنها تسخر منه، أنها تؤنبه على حبه لها وتعلقه بها. تكرار ذلك جعله يفكر عشرات المرات، بعد كل مكالمة، في مغزى كل كلمة قالتها، جعله يتأكد أنها لا تحبه، وربما تستغله، بدأ يفكر في التخلص من كل هذا، التخلص من سخريتها، التخلص من ضعفه أمامها، التخلص من ذوبان أيامه في حياتها، لكنه كان ما يلبث أن ينسى كل ذلك، فور أن يومض هاتفه باسمها.
جرب أن يكتب إليها رسالة ينهي فيها الأمر، ثم مسحها، ثم جرب أن يكتب من جديد، ثم مسحها، ثم اكتشف أن أقصر الطرق هو الطريق المستقيم:
«عزيزتي ميرفت
سأقول لك الحقيقة.
أنا أريد أن أنهي هذه العلاقة، لكني أريد في نفس الوقت، أن نظل نتحدث، أكرهك عندما تخفين عني الحقيقة، أقصد لا أحبك عندما لا تقولين الحقيقة، لماذا أتعامل معك بحنان في هذا الأمر، مع أنني أتعامل فيه بعنف مع الآخرين، أريد أن أنهي هذه العلاقة، ولا أعرف كيف، أنت تتمسكين بي، كمن يصر على تعذيبي، وأنا أتشبث بك كمن يريد أن يظل معذباً، هل هي متلازمة استوكهولم يا ميرفت".

توقف بيبو عن الكتابة، رفع أصابعه من الكيبورد وهو يشعر أنها تؤلمه. أوقف السيارة على حافة الطريق. رفع عينيه يتأمل الجبال حوله. لأول مرة منذ خروجه من النفق يرى الليل، كانت فتاة الدراجة فوق قمة الجبل في هذه اللحظة، كأنها نملة أعلى حائط أسود.

لم يرسل الرسالة.

لم يكن يملك حتى رفاهية الانفصال أو الابتعاد، أو التوقف عن الحديث إليها، كل ما يملكه هو التقليل من اتصالاته، من طول المكالمات بينهما. جرب أن يتوقف عن مهاتفاتها ثلاثة أيام متتالية، لم تتصل به في اليوم الأول، في اليوم الثاني تجاهل اتصالاً منها، ورد عليها برسالة إنه مشغول في العمل. في اليوم الثالث جاءته رسالة عبر هاتفه، فتحها في لهفة:

How r u,i miss my friend so much,i hope the days of the work will be finished soon so we can talk a lot.

شعر أن الرسالة مؤثرة جداً، وشعرية، رغم أن ميرفت تكره الشعر.

هاتفته في نهاية اليوم التالي، فرد على الفور.

ـ هابي فالانتاين داي

تضيف مازحة رداً على همهمته: كلمتك مراراً وتكراراً

يعرف أنها مرة واحدة، لكنها تكذب

يسألها بحيادية: ماذا فعلتِ في الفالانتاين داي اليوم؟

لم تفعل شيئاً، تعيب على العشاق الذين يضيعون أوقاتهم فيما لا

t.me/qurssan

طائل منه. تحدثا عن عدم جدوى الحب، والشوارع التي امتلأت باللون الأحمر دون معنى، والدباديب والقلوب والرسائل، دون أن يتحدثا عن نفسيهما. ثم حكت عن المطعم الجديد الذي تعمل به في "مول العرب"، والذي أكلت فيه "فريكاً" أعجبها، وعن طرق طهي الفريك، بينما هو غير منتبه.

يتوقف ليومين آخرين عن مهاتفتها، لكنه لا يستطيع أن يمنع المرارة التي لا زالت موجودة في حلقه. في مساء اليوم الثالث قال لنفسه إنه بدأ يتعافي، ويستغني عن وجودها في حياته، لكنه في الصباح التالي، لم يستطع منع نفسه من مهاتفتها.

حاول أن يشغل نفسه بأشياء أخرى، أعاد سماع الأغاني مرة تلو المرة، أعاد مشاهدة الأفلام على الكمبيوتر، أعاد قراءة الكتب. لكن الوقت ثقيل وبطيء رغم ذلك.

تحدثا مرتين فقط في الأسبوع التالي. ربما لأول مرة، يتحادثان، مرتين فقط في الأسبوع، وأن تكون هي المبادرة.

عندما يفكر أنها لم تخطئ في شيء، وأنها تريد أن تحافظ على صداقتهما، يحاول أن يجد لنفسه مبررات لتصرفاته، كي يبدو أخلاقياً أمام نفسه، مثل أنها لم تعد تفهمه، عندما حاول مغازلتها:

ـ عندما أموت، أتمنى أن ندفن في مكان واحد.

فهبت فيه:

ـ تجاملني أم تتمنى لي الموت؟

لم يعرف بماذا يجيب. عندما لاحظت أنه لم يحر جواباً، أضافت

أنها تمزح معه. لكنه كان يدرك أن ثمة جبل يصعد بينهما، أن في كل جملة منه أو منها هناك لغم محتمل ينفجر في الآخر، صار حديثهما قفزاً على فخاخ الكلام حتى لا يتحول كل شيء إلى معركة.

لا ينكر أنه صار كئيباً، قليل الكلام. الكلام الذي كان لا ينتهي أصبحا يبحثان عنه بلا جدوى. الفارق هو أنهما كانا في البداية يخلقان المواضيع من لا شيء للحديث عنها، تمر الساعات الطويلة ولا ينتهي الكلام، يكتشفان فجأة أن الوقت قد مر. أما الآن فقد أصبح هناك جدار طويل من الصمت بينهما، حتى سؤال: كيف حالك، لا يستطيع إيجاد إجابة مناسبة له، أو إسقاط ذرة تراب من فوقه، لأن الإجابة تكون دائماً مقتضبة، أو غاضبة أو حيادية:

ـ تعرفين، هناك مسرحية لزياد رحباني يقول فيها: «كل ما بتسألني كيفك بتذكر إني مش منيح، يعني بتعرف، لو بلاه ها السؤال»، أنا أيضاً كلما تسألينني «كيف حالك» أتذكر أنني متعب، وأن الأيام تشبه بعضها، يعني بتعرفي، لو بلاه ها السؤال.

صمتت وهي لا تعرف بماذا ترد. ربما شعرت أنه يطردها من حياته بشكل أو بآخر.

لا يعرف هل أخطأ لأنه يعاملها بهذه الطريقة أم لا، لأنه لا ذنب لها في أنه أحبها بينما هي لم تحبه، ربما أرادته صديقاً فقط، لكنه يريد منها حباً مثلما أعطاها، مع أنها لم تطلب منه شيئا.

تباعدت مكالماته مع ميرفت. صار حريصاً على ذلك. ينهيها

t.me/qurssan

بسرعة حتى لو حاولت إطالتها، كأنها نار تنشب في ملابسه وربما في قلبه فيطفئها بأسرع ما يستطيع. يشعر بثقل الملاكين على كتفيه كأنهما جبلين، فيوقف السيارة في منتصف الطريق، غير آبه بالشاحنات السريعة التي تمرق من حوله.

(3)

هل تقلص هيكل السيارة حوله، أم هو شعوره المتزايد بالوحدة؟ لا يعرف، لكنه ظل يحاول التغلب على ذلك بالاتكاء على هيكلها ودفعه للخارج قليلاً، بينما الأيام تمضي بلا معنى. رتيبة، لدرجة أنه لم يعد يميزها. قاتمة، كأن الليل لا ينتهي، صامتة، بعد أن اختفت ميرفت، ولكن هذه المرة بإرادته، بعد أن «طردها» تقريباً من حياته.

يتنقل من حي إلى حي. من شارع إلى شارع، فوق طرق متعرجة غير ممهدة، فيشعر أنه يجلس في في جيب كنغرو، يقفز في الغابة هرباً من وحش كاسر. يركن السيارة عندما يتعب لينام، يستيقظ ليكمل الطريق. يعرف أنه لن يصل إلى أي مكان، لكنه يرغب في أن يعرف النهاية.

أمسك هاتفه، فكر أن يتصل بميرفت، ثم تراجع. راجع الأسماء في قائمة الاتصالات، لاح له اسم المؤلف:

ـ محمد أبوزيد

نطق الاسم بصوت مسموع، وهو يشعر بكراهية شديدة تجاهه، لماذا حبسه في هذه السيارة؟ ما هي الضرورة الفنية؟ هل أراد أن يتخلص منه؟ أم يرى فيه انعكاساً لذاته؟ لماذا لم يجعل ميرفت تحبه وكان سيقبل بأي مصير بعد ذلك؟ توقف لحظة وفكر: هل

t.me/qurssan

يمكن أن يطلب منه أن يضع حداً لما يعانيه. هل يمكنه أن يعيده إلى حياته الحقيقية؟ لا زال يذكر لقاءهما على مقهى صالح، لم يبدُ له روائياً مأمون الجانب يستطيع أن يأتمنه على حياته، فضلاً عن أنه يرفض أن يكون مصيره مربوطاً بيد أحد. إنه شخص مستقل من لحم ودم. لا علاقة للمؤلف بما يحدث له. فكر قليلاً، تذكر ميرفت فشعر بنغزة في قلبه، أغمض عينيه بقوة، حسم أمره وضغط زر الاتصال، لكن انتهى الرنين دون أي رد.

ماذا يفعل المؤلف في هذا الساعة؟ لماذا لا يرد؟ جرب مرة ثانية وثالثة ورابعة بلا أي رد. ربما يكون نائماً. ربما يكون ميتاً. ربما لا تصله هذه المكالمة. اقترح تأبط شراً:

ـ ما رأيك أن تذهب إليه؟

لكن الإشكالية التي لم يكن يعرف لها حلاً، هي كيف يخرج من عالم السيارة، ويعود إلى العالم التقليدي ويقابل المؤلف. يدرك أن ما يعيش فيه الآن عالم آخر، مواز ربما، عالم حُلمي.. يجوز. لكن ثمة ما يفصل بينه وبين العالم الحقيقي. وإلا لو كان يعرف طريق العودة لعاد منذ اليوم الأول.

أحس بنقر على كتفه الأيمن، فالتفت، فإذا بالملاك الأيمن يتثاءب وهو يقول:

ـ لا بد أن هناك مخرجاً. ما دمت تريد المؤلف، فلا بد أنه ترك ممراً منه إليك، حتى يتحكم فيك.

شعر بنقر على كتفه الأيسر، فالتفت، فإذا بالملاك الأيسر يكمل:

ـ ابحث في إعدادات السيارة

التفت بيبو إلى خارج السيارة كأنه يبحث عن حل هناك، كانت الفتاة ذات الضفيرة الواحدة، التي تقود الدراجة فوق الجبل قد اختفت تماماً، شعر بانقباض، فأخذ يقلب في برامج السيارة أمامه، وصل إلى الإعدادات، ثم الخصوصية، وجد ملفاً باسم "المؤلف". ضغط عليه. فانفتح أمامه مربع صغير:
هل ترغب في الوصول إلى المؤلف؟
ـ نعم
ـ لا
ضغط بطرف إصبعه على المربع "نعم" في عنف، فظهر له مربع آخر يطلب إدخال كلمة السر. أحبط بيبو لأنه لم يكن يعرف، زادت كراهيته تجاه المؤلف الذي صار متأكداً أنه يريد أن يحبسه أو ينتقم منه، وفي يأس جرب إدخال كل كلمات السر التي يمكن أن تخطر على باله، 123456، password، admin، movie، 0000، 1111، novel، poem، poetry، جرب كلمات أخرى من عالمه، عم ممدوح، محمد أبوزيد، تأبط شراً، تمهل لحظة ثم كتب متردداً "ميرفت"، فشعر بالسيارة تهتز بشدة، قبل أن تنطلق بسرعة صعوداً وهبوطاً، مع ظلام شديد في الخارج. صرخ تأبط شراً:
ـ ماذا فعلت؟ انتبه
أمسك بيبو بمقود السيارة بيده بقوة، كي لا تنقلب، صارخاً:
ـ لا بد أن أذهب للمؤلف لأتخلص من كل هذا.
ـ لكن الطريق ليس سهلاً

t.me/qurssan

ـ لقد شعرت بهذا، يبدو أننا نسير فوق جبل

سعل تأبط شراً، وقال:

ـ الأمر أشد من هذا يا بيبو، لا وصول دون رحلة.

ضحك بيبو، فأكمل تأبط شراً:

ـ أنا لا أمزح، هكذا تقول القواعد.

رد عليه بيبو وهو يحاول أن يحفظ للسيارة توزانها:

ـ أشعر أني في لعبة بلاي ستيشن، وربما في قصة هزلية للأطفال.

ثم ضغط على مكابح السيارة بلا جدوى، عندما شعر أنها تهوي به لأسفل.

(2)

توقفت السيارة بعد أن اصطدمت مقدمتها بجسم صلب، قبل أن تتناثر دماء سوداء على الزجاج الأمامي. رفع بيبو يديه في رعب من على المقود متسائلاً عما حدث.

لكن قبل أن يصل لإجابة وجد عشرات الوجوه الغاضبة تلتف حول السيارة، رجال سمر غاضبون يغطي وجوههم الشحم والتراب، يرتدون ملابس زرقاء، كأنهم عمال خارجون من منجم بعد عمل طويل شاق، يدقون بعنف على هيكل السيارة. شعر بيبو كأن الدق على جسده، وأن صوت الخبطات ينفجر في أذنيه. حدق مذعوراً في الوجوه المكفهرة التي أحاطت بالسيارة حتى حجبت الرؤية تماماً.

تأكد من إغلاق الباب جيداً خشية أن يفتحوه. قفز الملاكان من على كتفيه واختبئا أسفل المقعد الخلفي، ارتفع شخير تأبط شراً، وهو يغمض عيناً ويفتح الأخرى ليعطي إحساساً بأنه نائم فيما يراقب الموقف. الأنذال تركوه وحيداً.

ـ ماذا حدث؟

صرخ عالياً حتى يغطي على همهمة الرجال في الخارج، فسكتوا على الفور. تراجعوا للوراء. وانحنى أربعة منهم إلى أسفل مقدمة السيارة، قبل أن يرفعوا رؤوسهم وهم يحملون جثة واحد منهم.

t.me/qurssan

فزع بيبو عندما فهم ما حدث. لا بد أنه صدم أحدهم بالسيارة أثناء انحدارها دون أن ينتبه. رفع الرجال الجثة على أكتافهم وساروا بها للأمام، فيما راح آخرون يضيئون الطريق بمشاعل تتراقص نيرانها بفعل الرياح في الخارج، وهم يصرخون بكلمة واحدة:

ـ كاااك. كاااك.

كان المشهد مهيباً، لولا ما نطق به الرجال الذي حولهم من مجرد رجال غاضبيهم إلى قطيع من البط. لكن رغم ذلك ظلت الكلمة تحتفظ داخلها بكمية هائلة من الغضب والجدية والحزن الدفين. للحظة ظن بيبو أنهم انصرفوا مع الجثة وتركوه، إلا أنه شعر بالسيارة تتحرك، أو بالأدق تتأرجح إلى الأمام. وعندما نظر حوله مفزوعاً، اكتشف أن أربعة رجال آخرين يرفعون السيارة فوق أكتافهم كأنهم يحملون جثة. لقد قرروا أن يصطحبوه معهم. لم يكن بيده أن يفعل شيئاً. ولم يكن يستطيع حتى أن يخرج إليهم ليقنعهم ببراءته.

استقرت السيارة على الأرض بعد قليل، فيما وضع الرجال الغاضبون الجثة على كومة من الخشب. أدرك على الفور ما سيفعلونه. لكنهم لم يشعلوا فيها النار، بل التفوا حولها وهم يصرخون بنفس الكلمة:

ـ كاااك. كاااك.

من هؤلاء الرجال يا تأبط شراً، لم يسأل بيبو، لكن الببغاء كان يعرف الإجابة. إنهم رجال كانوا يعملون في صمت، لا يفعلون شيئاً

سوى العمل، كل منهم يقوم بعمله كأنه ترس في آلة دون التفات إلى من بجواره. مرت عليهم الشهور والسنوات وهم منهمكين في العمل، حتى نسوا الكلام. لم تعد تخرج من أفواههم سوى همهمات لا يُفهم منها شيء. وفي يوم خرجوا إلى النهر فرأوا هناك بطتين تتحادثان: كاك، فترد الأخرى كاك. قلدوهما، ومن هنا نشأت اللغة. لغة بسيطة وواضحة وقوية. وتقول كل شيء. لسنوات طويلة، ربما تجاوزت العشرة، كانوا يخرجون مساء كل يوم، يتظاهرون في الشوارع، بعد انتهاء العمل، للمطالبة بيوم إجازة أسبوعي وتقليل ساعات الدوام اليومي، يرفعون مطالبهم في صرخة واحدة:

ـ كااك

لكن للأسف لم يستجب لهم أحد، فلم يكن أحد يعرف ماذا يريدون، أو ماذا يقصدون.

من بين الجموع الغاضبة، خرج رجل ذو شارب أبيض، بدت ملابسه الزرقاء أنظف قليلاً، كما كان يعتمر قبعة سوداء على شعره شديد البياض؟ اقترب الرجل من الزجاج المجاور لبيبو، ونظر في عينيه مباشرة ثم سأله؟

ـ كاااك؟

لم يجب بيبو، لأنه لم يفهم ماذا يريد الرجل الذي واصل التحديق في عينيه، وأعاد سؤاله مرة أخرى في إصرار:

ـ كاااك؟

لم يعرف بيبو هل هذا سؤال أم اقتراح أم ماذا، لكنه خمن أنه

t.me/qurssan

سؤال من صيغة الاستفهام التي تراءت في عيني الرجل. فتح تأبط شراً عينه الثانية، وهمس لبيبو:

ـ إنها لغة مدينة البط الغاضب، لا بد أن تجيب الرجل بلغته، وإلا لن نخرج من هنا.

حاول بيبو أن يبتسم قليلاً، أن يحوّل كل ما يريد أن يقوله لتبرئة ساحته إلى كلمة واحدة، فنظر إلى الرجل وقال في استعطاف:

ـ كاك.

قالها قصيرة، متقطعة، مخطوفة. كأنه يخشى أن يتلفظ بها، أو أن يفهمها الرجل بشكل خاطئ. لكن الرجل ما لبث أن ابتسم، ثم أطلق ضحكة عالية، والتفت إلى زملائه، وهو يلوح بيده دون أن ينطق، فقط تلمع أسنانه البيضاء في الظلام. دبت الحماسة في عروق الرجال فصرخوا جميعا في صوت واحد:

ـ كاااك كاااك.

لم يفهم بيبو، لكن تأبط شراً همس من بين أسنانه:

ـ يخرب بيتك. رحنا في داهية.

لم يلتفت بيبو إليه، لكنه تابع الرجال الذين قاموا بحمل جثة الرجل من فوق الأخشاب، ووضعوها في نعش أخضر اللون، فيما راح صبي صغير مصفر الأسنان يمسح زجاج السيارة الأمامي بالدم، وانهمك آخر في طلاء الأبواب. وفجأة شعر بيبو بالسيارة تتأرجح مرة أخرى، رفع نظره للخارج فرأى الرجال الأربعة يحملون السيارة ويضعونها فوق كومة الأخشاب.

ـ ماذا تفعلون؟

صرخ بيبو فجأة وقد أدرك ما سوف يحدث
رد عليه تأبط شراً
ـ لقد سألك الرجل: هل قتلته فأجبته نعم
التفت إليه بيبو: لم أقل ذلك
هز الببغاء ريشه:
ـ بل قلت. في لغة مدينة البط "كاك" واحدة تعني الموافقة، أما "كاك كاك"، فتعني الرفض. أما أكثر من ذلك فلكل عدد معين من "الكاكات" معنى. إنهم لا يتكلمون إلا بهذه الطريقة، لا يتراسلون عبر الواتس آب إلا بها.
ـ لكني لم أكن أعرف.
ـ قل له ذلك.
ـ وكيف أشرح له؟
ـ لا أعرف.
اقترب رجل يحمل شعلة من كومة الأخشاب، ورفعها عالياً:
ـ كاااك، كااااك، كاااك.
وبعد أن ردد الرجال خلفه نفس الجملة بحماس، ألقى بالشعلة فوق كومة الخشب التي راحت النيران تنتشر فيها تدريجيا، بدأت درجة الحرارة في السيارة ترتفع رويداً رويداً، حاول بيبو أن يشغل مكيف السيارة لكن بلا فائدة، لاحظ أن أجنحة الملاكين الراقدين في الخلف بدأت تنصهر، كأنها مصنوعة من الثلج، فيما أخذ تأبط شراً ينشد أبيات المتنبي الأخيرة التي قالها قبل أن يموت. أدرك بيبو أنه هالك لا محالة ما لم يتصرف. أدار محرك

t.me/qurssan

السيارة، ضغط دواسة الوقود وانطلق بالسيارة التي اشتعلت فيها النيران وسط صرخات الرجال الغاضبين، الذين تدافعوا فزعين بعيداً عن مقدمة السيارة:

ـ كاك كاك

انطلق بيبو بأقصى سرعة في الظلام، لا يرى شيئاً إلا على ضوء النيران التي تشتعل في جوانب السيارة وبدأت تخفت مع الوقت. قلل بيبو من سرعته، بعد أن تباعدت أصوات رجال مدينة البط الغاضب، ورفع قدمه من على دواسة البنزين وتركها تسير وحدها، التفت إلى تأبط شراً لاهثاً وهو يحاول أن يبتسم:

ـ لقد نجونا

وافقه الببغاء بهزة من رأسه دون أن يتكلم، فيما قال مملوك بعد أن استعاد كتفه الذي ساح من النار.

ـ لكن ربما ارتكبنا جريمة قتل، هذه خطيئة، أخشى أن نُعاقَب.

تذكر بيبو خطيئة "المصباح" الذي لم يرده لعلاء الدين، ومنحه لميرفت، فشعر بالذنب. أطرق قليلاً، فقال سامي:

ـ دعنا نحاول فقط، لقد اجتزنا الأصعب.

انتهى الطريق المظلم، وبدأت أعمدة الإضاءة تنتشر على مسافات متباعدة، كان الطريق شبه ممهد لكن معالمه بدت مألوفة لبيبو. بعد قليل من التدقيق أدرك أنه على الطريق الدائري في اتجاه ميدان الرماية. هل عاد مرة أخرى؟ لم يكن يشعر بذلك خاصة أن السيارة كانت تسير وحدها. ربما كان طريقاً خاصاً يربط العالمين. لكنه أدرك أنه في طريقه إلى بيت المؤلف، عرفه من

بعيد بمجرد أن لمحه.

لم يكن البيت كما تصوره في خياله. يعرف أن المؤلف يسكن في الدور الخامس كما اعتاد طيلة حياته، كأنها لعنة تطارده. لكن بدت المساحة حول البيت مهجورة تماماً. البيوت متهدمة، ونباح كلاب يتصاعد من بعيد. لمح في الدور الأول مستشفى صغيراً تروح وتجيء سيارات الإسعاف أمامه، ويحمل ممرضون سرائر فارغة يهرولون بها إلى الداخل، في الدور الثاني بدا ما ظن أنه مدرسة ليلية، يطل من شرفاتها أطفالاً يحيون العلم، ثم سمع صوت قرع الجرس ورأى الطلبة يقفزون من النوافذ إلى الشارع في مرح. في الدور الثالث رأى ما خمن أنه إدارة للمطافئ، حيث شب في ناحية منها حريق، وراح جنود يرتدون خوذات ويرفعون مظلات شمسية يتسلون بالإطفاء. الدور الرابع كان مهجوراً تماماً، وقد تهدمت أعمدته، فبدا أن الدور العلوي الذي يسكنه المؤلف معلقاً في الهواء.

لم يعرف بيبو كيف يصعد إليه. ففتح نافذة السيارة المجاورة، وأخذ يصيح بأعلى صوته

ـ يا محمد أبو زيييييد

كرر النداء خمس مرات دون رد، فيما تصل مسامعه دقات أصابع شخص ما على الكيبورد، لا بد أن المؤلف يحدد مصيره الآن، فعاد للنداء مرة أخرى:

ـ يا محمد أبو زييييد

توقف عن النداء عندما صرخ فيه أحد المسعفين بلهجة شعبية

t.me/qurssan

سكرانة، وهو يحمل جثة على كتفه، ويساعد آخر في دفنها في حفرة بجوار البناية:
- "اهدأ يا عمُّنا، ستوقظ الميت".
حاول بيبو أن يفتح باب السيارة لكنه لم يستطع، كأن الباب والسيارة صارا قطعة واحدة، حتى يده لم يستطع إخراجها من النافذة التي فتحها حتى نهايتها، حيث بدا الهواء في الخارج مثل جدار من الصلب الشفاف، أغلق بيبو النافذة والتفت إلى الملاك الأيسر، الذي وضع سيجارة في فمه منتظراً من بيبو إشعالها له:
- يبدو أنها الخطيئة.
اقترح الملاك الأيمن، وهو يربط حزام الأمان:
- در حول البيت بالسيارة وأنت تضيء مصابيحها، علنا نلفت انتباهه.
أدار بيبو محرك السيارة، فانطلقت من تلقاء نفسها في خطوط دائرية حول المنزل، عشرات، مئات، آلاف الدوائر، لكن بلا جدوى.

(1)

السيارة غاضبة.

أدرك بيبو ذلك، عندما وجدها تسير بأقصى سرعتها في طريق مظلم منزلق ممتلئ بالمطبات، وسط جو عاصف يتناوب بين البرق والرعد والمطر، شغّل مساحات السيارة بلا فائدة، أراد أن يهدئ السرعة بلا جدوى، ضغط المكابح بأقصى قوته، فزأرت وواصلت غضبها وسرعتها. أحياناً يشعر أنها من لحم ودم وروح، تحزن وتثور وتغضب، وأحياناً يظن أن غضبها انعكاس لغضبه الداخلي، غضبه الذي لم يعد يعرف كيف ينهيه، لأنه لا يعرف كيف يتصرف بعد أن تخلى الجميع عنه، من ميرفت حتى مؤلفه. آخر ما يذكره أنه كان يدور حول بيت محمد أبو زيد، ثم غلبه النوم، ثم الظلام، ثم الظلام مجدداً.

توقفت السيارة فجأة بصرير عالٍ، فاندفع جسد بيبو إلى الأمام في عنف، وسقط الملاكان في دواستي المقعد الخلفي، فغمغم تأبط شراً:

ـ الرحلة لم تنته بعد.

حدق بيبو خارج السيارة، فلم ير شيئاً من الظلام، لكن بدا أن العاصفة سكنت قليلاً. فتح باب السيارة حذراً، فأصدر صوتاً مزعجاً كأنه لم يفتح منذ سنوات، أزاح بيبو خيوط عنكبوت

t.me/qurssan

علقت في قدمه وفي حواف باب السيارة، خطا إلى الخارج وهو يستنشق هواء الليل المنعش. قفز تأبط شراً من قفصه إلى ذراع بيبو، بينما ترجل الملاكان، واحد عن يمينه وآخر عن شماله، فبديا كمصباحين صغيرين ينيران طريقه.

سار قليلاً عبر طريق متعرج، قبل أن يعبر جسراً صغيراً يقطع نهراً راكداً بالأسفل يتصاعد منه نقيق ضفادع، تأمل منازل متجاورة مهجورة مبنية على الطراز المملوكي، توقف أمام ما بدا له أنه منزل مأهول من أضواء خفيفة تنبعث من داخله. دق القبضة المعدنية أعلى الباب، ثم دفعه بحذر عندما لم يصله رد وخطا إلى الداخل.

كان مطعماً راقياً، مزدحماً قليلا، في طرقاته راح العمال يسيرون بسرعة وهم يحملون أكوباً وأطباقاً وملاعق وسكاكين، ابتهج مملوك، وصفق بجناحيه فتطايرت منهما ألعاب نارية صغيرة:

ـ هيه.. أخيراً، لم آكل ملوخية منذ قرنين.

رفع بيبو الملاكين على كتفيه خشية أن يدوسهما أحد دون أن ينتبه، ثم جالت عيناه في المكان، قبل أن تستقران على بار صغير تقف خلفه ثلاث عاملات يرتدين ملابس المطعم الرسمية، فكر أن يأكل شيئاً، فتقدم منه منتظراً أن تنتهي إحدى العاملات من انشغالاتها، قبل أن تدخل من باب داخلي، عاملة رابعة ترتدي الزي نفسه، وتحمل وجه ميرفت.

ارتبك بيبو، فظل صامتاً، وارتبكت ميرفت فلم تتحرك من مكانها بينما راحت زميلاتها يجئن ويذهبن من أمامها، لدقيقة كاملة لم

يرفع أحدهما عينه عن الآخر، تاركين صمتهما يقول ما لم يجرؤا على قوله. أخيراً نطقت ميرفت، في لهجة شبه رسمية، وهي تشير إلى طاولة مربعة خالية في طرف المطعم:

ـ تفضل استرح هنا، وسآتيك حالاً لآخذ طلبك.

هز بيبو رأسه دون أن ينطق، قبل أن يتجه إلى الطاولة البعيدة، وضع الملاكين على مقعدين متقابلين على جانبيه، وأشار لتأبط شراً إلى المقعد المقابل له، فقفز فوقه دون أن يصدر أي صوت. كان بيبو لا زال مرتبكاً، يحاول أن يفسر النظرة التي رآها في عيني ميرفت: مزيج من عتاب ولوم وحزن وحسرة وألم. هل تقصد حقاً كل هذه المشاعر؟ لكنه لم يفعل شيئاً، فقط توقف عن مهاتفتها.

قرر بيبو أن يتحدث معها بصراحة، وهكذا ظل جالساً في انتظارها، مضت ساعة، ساعتان، هدأ الزحام قليلاً، ثلاث، أربع، فرغ المطعم تماماً من زبائنه ولم يعد يصله إلا صوت بهجة العاملين بنهاية يوم العمل، خمس، انصرف العمال، وهدأ الصوت تماما، ست، سبع ساعات ولم تأت ميرفت، انتبه حين انطفأت أضواء المطعم من تلقاء ذاتها. عم الظلام تماماً، حتى حرك الملاكان أجنحتهما فأضاءا المطعم قليلاً، هل تركته وانصرفت؟ لماذا لم تحضر؟ هل تنتقم منه؟ شعر أن قلبه الذي تحرر سقط مرة أخرى أسيراً، أن جرحه الذي حاول إغلاقه قد انفتح مرة أخرى لينزف بلا توقف، أن عنكبوتاً مجنوناً داخله يغزل خيوطاً حول أوردته ويزحف على كل جزء منه كي يكبله مرة أخرى.

t.me/qurssan

اتجه بيبو إلى البار، مع أمل ضئيل في أن يجدها في انتظاره، لكن لم يجد أحداً، مرر يده على الطاولات أثناء خروجه، فشعر بتراب وخيوط عنكبوت تعلق بها، رفع أصابعه أمام عينيه ليتأكد، كان الغبار عالقاً بها فعلاً، استند إلى طاولة مجاورة محاولاً أن يفهم، لكنها تهاوت به أرضاً على الفور، إثر عاصفة قوية مفاجئة أطاحت بنوافذ المطعم وبابه. تطايرت الأطباق والاكواب في كل جانب، غطى التراب أجنحة سامي ومملوك، فأخفت ضوءها. صرخ تأبط شراً وهو يحلق للخارج:

ـ اخرجوا بسرعة، قبل أن ينهار المطعم علينا.

حمل بيبو الملاكين تحت كتفيه، وهرول خارجاً، سقط أمام الباب، نظر للمطعم الذي اختفى تحت العاصفة وهو يشعر أن هذا المشهد جدير بليوناردو دي كابريو، لكن لا يعرف في أي فيلم: Inception أم Shutter Island. نهض بصعوبة محاولاً الهروب من الرياح والأتربة، فيما أسئلة حياته تنتصب أمامه كأنها قضبان سجن، وتعصف برأسه: لماذا اختار له المؤلف أن يعمل في مستشفى للمجانين، ما الضرورة الدرامية لذلك؟ هل أراد أن يوحي بجنونه؟ هل يعمل في المستشفى أم أنه نزيل فيها؟ هل شاهد ميرفت قبل قليل أم لا؟ هل هناك ميرفت أصلاً أم أنها من وحي خياله؟ هل أهداها المصباح؟ لماذا اختارها علاء الدين في السيرك رغم أنها لم ترفع يدها؟ هل قابل علاء الدين فعلاً أم لا؟ هل كيت وأودري زميلتاه أم طبيبتاه؟ هل أحب ميرفت لأنه أعجب بها، أم لأن نبوءة الطبيبة تحققت؟

هدأت العاصفة، بمجرد أن عبر النهر، التفت بيبو إلى الخلف فلم ير شيئاً سوى غبار يغطي كل شيء تاركاً آثار حرب كبرى، توقف حيث ركن سيارته، لأول مرة يتبين ملامح المكان حين هتف سامي:

ـ أعرف هذه المنطقة، كنت أسكن بالقرب من هنا.

رفع بيبو عينيه إلى شواهد المقابر أمامه، التي تمتد لمسافة كبيرة، ثم أدار عينيه إلى الجهة الأخرى حيث تمتد صحراء مترامية الأطراف، تضيئها نجوم تومض وتنطفئ.

أطال تأبط شراً النظر إلى الصحراء الممتدة متنهداً:

ـ ذكرتني بالأيام الخوالي

سأله بيبو بصوت خافت:

ـ هل تريدها أن تعود؟

خطا تأبط شراً خطوتين إلى الأمام في اتجاه الصحراء، ثم التفت إليه قائلاً في أسى:

ـ الذي يذهب لا يعود يا صديقي.

قطع صمتمها مملوك بإشارة إلى سامي الذي اتجه إلى المقابر كأنه مسلوب الإدارة، فتبعه بيبو مهرولاً بين الشواهد.

توقف سامي أمام شاهد قبر عالٍ، اقترب بيبو منه، فقرأ اسمه محفوراً عليه، فتراجع للخلف مرعوباُ، وصلته نهنهة وصوت بكاء من الجهة الأخرى من الشاهد، اتجه إلى مصدر الصوت فوجد رجلاً يرتدي زياً مغربياً، ويضع قبعة رعاة بقر فوق رأسه، منحنياً على شاهد قبر يبكي نشيج متقطع عالٍ، لم يعرف بيبو ماذا يفعل،

t.me/qurssan

فاقترب منه وربت على كتفه في رفق مواسياً، التفت إليه الرجل، والدموع تملأ عينيه:
ـ الجني مات، الجني مات يا بيبو.
كان علاء الدين، ملابسه متسخة تماماً، وشعره يبدو مشعثاً أسفل القبعة، ونظارته بلا عدسات، ووجهه متسخ بالدموع والتراب.
ـ البقية في حياتك.
شعر بيبو بنغزة شديدة في صدره وهو يقول الجملة، كأن شيئاً انطفأ داخله بشكل مفاجئ، استند إلى الشاهد وهو يشعر بدوار، أراد بيبو أن يسأله كيف مات، كيف عرف أنه مات، هل قابل ميرفت وأخذ منها المصباح، غير أن علاء الدين أكمل وسط نحيبه:
ـ لا أعرف ماذا أفعل بدونه، مات مخنوقاً في المصباح، مات دون أن أودعه. مات. مات يا بيبو.
ثم جلس على الأرض، مخبئاً وجهه بيديه، ربت بيبو على كتفه بيده، قائلاً كل عبارات المواساة التي يعرفها، ثم انسحب بهدوء من المكان خائفاً من أن يتهمه بالتورط في موته.
في السيارة، خيم الصمت على الجميع، عاد كل إلى مكانه دون كلمة. أدار بيبو محرك السيارة، وتركها تتجه إلى الطريق الذي تريده.
قال تأبط شراً:
ـ نحن في قلب متاهتنا.
مع ظهور ضوء الصباح بدأت حشود تتجمع على جانبي السيارة

التي تسير ببطء، ثم أمامها، يهتفون بدون صوت، على وجوههم تتبدل تعبيرات الخوف والغضب والحزن والرجاء بالترتيب، يرفع أحدهم لافتة مرسوم عليها قبضة مضمومة. يرفع آخر لافتة عليها كف يد مفتوحة، كأنها تأمره بالتوقف.

توقفت السيارة تلقائياً، ورد فارس على سؤال لم يقله بيبو

ـ من هؤلاء

ـ ربما قراء غاضبون من المؤلف.

كانت الجبال على الجانبين قد تراجعت مبتعدة، بنايات بنية وصفراء تتراص على الجانبين، وفوق كل بناية وقف أطفال ومراهقون في يد كل منهم زجاجة مولوتوف، وعلى الجانبين بدت حشود من الناس بوجوه شوهاء، كأنها تتأهب لحرب نهاية العالم، فيما مطر أخضر خفيف يهطل من السماء، فتنبت الأرض على الفور نبتات فول وبقدونس.

أخذ بيبو يراقب من داخل السيارة ما يحدث، لكن طنين نحل بدأ يحيط بالسيارة، سرب كامل يحجب عنه الصوت وأحياناً الرؤية. رأى حجراً يُقذف. رأى رجلاً يمتطي نحلة عملاقة ويمسك في يده سوطاً وينطلق إلى الناحية الأخرى، رأى طفلاً يطلق النار، رأى عجوزاً يسقط. رأى وجه رئيسه في العمل، رأى شاباً يمسك صدره والدماء تتفجر منه، ثم تترنح رأسه قبل أن يسقط كدمية محشوة بالقطن، رأى المطر الأخضر يتحول إلى أحمر ويفجر القلوب والرءوس والصدور، رأى الأرض تتصحر.

الرصاصات تنطلق يمينا ويساراً، النحل يتكاثف، حجارة تتقاذف

t.me/qurssan

هنا وهناك، النحل يتكاثف. تغيم الرؤية بعد أن بدأ المراهقون أعلى البنايات يقذفون بزجاجات المولوتوف، النحل يتكاثف، الدماء والغبار وقنابل الدخان تغطي كل شيء، النحل يتكاثف، طوبة تصيب رأس الملاك الأيمن فيسقط من على كتف بيبو، النحل يتكاثف، يصرخ تأبط شراً وهو يضع جناحه على فمه، النحل يتكاثف، يقفز الملاك الأيسر ليسند توأمه الذي سقط على الكرسي الخلفي، النحل يتكاثف فيغطي السيارة تماماً. يسمع بيبو أنيناً في الخلف لا يحدد مكانه بسبب الرؤية الضبابية، بالكاد يميز دماء بيضاء تسيل من جناح سامي.

هتف ملاك الجانب الأيسر:

ـ إنه يموت

بدا أنه ينازع بالفعل، فيما عيناه معلقتان بتوأمه.

ـ يبدو أنها النهاية.

تحمل أسراب النحل السيارة إلى أعلى، تعبر بها فوق الموقعة الدائرة بالأسفل، ثم تتركها في مكان بعيد لتسقط أرضاً. ترتج السيارة قبل أن تستقر، فيتحطم الملاك إلى عشرات قطع الزجاج الصغيرة، زجاج أبيض مبشور يغطى الكرسي الخلفي.

تسقط دمعة سوداء من عين مملوك، فيما تصدر موسيقى تصويرية حزينة مبتورة من فم تأبط شراً.

توقفت السيارة مرغمة في حارة ضيقة، أمامها ذكر نحل وحيد يطارد نحلة في صحراء تمتد في الأفق، وفي الخلف، عشرات المجانين يهرولون وهم يحملون نعشاً فارغاً في طريقهم إلى المقابر.

***

في صباه، زار أقرباء في إحدى قرى سوهاج، وهناك رأى الجبل لأول مرة في حياته، بعيداً عن الصور في المجلات وأفلام الكارتون. كانت القرية عبارة عن أرض مزروعة، ثم نهر، ثم جبل عال. قالت أمه له عندما رأته مبهوراً إن هذا الجبل هو نهاية الدنيا، لكن خالته بالغت في تخويفه:

ـ خلف هذا الجبال لا يوجد شيء، ربما حيوانات مفترسة، وربما صحراء قاسية، وربما لاشيء.

كان أكثر ميلاً لتصديق رواية أمه، أن خلف الجبل نهاية العالم، لو صعده سيلمس السماء، وسيرى الشمس وهي تسقط في بئر عميق، قبل أن تهرب في صباح اليوم التالي، وتبزغ من الجهة الأخرى.

بعدها بسنوات، أصبح أكثر ميلاً لنظرية خالته، أن خلف هذا الجبل توجد غابة كبيرة تملؤها الذئاب والضباع، وتجيء منها السلعوة التي تعقر الأطفال، والنمس الذي يفسد بطيخ الجيران.

الآن، لا يرى حوله سوى جبالاً شاهقة، كأنها موصولة بالسماء، لا يستطيع نظره أن يصل إلى ارتفاعها، وطريق ممهد تجري عليه السيارة دون أن يضغط بقدمه على البنزين، طريق طويل بلا نهاية يشبه ذلك الذي يراه في الأفلام الأجنبية، حينما تصور الكاميرا حبيبين مسافرين في رحلة استجمامية، لكنه الآن وحيد. وحيد تماماً.

t.me/qurssan

السيارة تسير ولا تصل، الهاتف مثل الجثة يرقد إلى جوار يده، الكمبيوتر ملقى على دواسة المقعد الأمامي وقد تحطم تماماً، الأغاني توقفت. تأبط شراً عاد لصمته، فيما جلس الملاك في دواسة المقعد الخلفي وقد وضع أسند وجنته على جناحه في حزن، وجوه متشابهة من كتل صماء تحدق فيه من الخارج، تشبه أشرار فيلم ماتريكس، لكن رغم ذلك بدا له كل شيء في الخارج حقيقياً، كأنه عاد إلى حياته.

لم يعد يذكر البداية، ذاكرته شمعة تذوب بفعل النيران. زجاج السيارة يتحول إلى شاشة تعرض كل شيء رآه أو عرفه، يرى نفسه يقتل الكركن، يقبّل ميدوسا بين عينيها، يتدفأ من صقيع الشتاء بنيران يبعثها على مهل فم تنين صغير، يشاهد آدم يأكل التفاحة، وحواء تلد على الأرض لأول مرة. يرى الآن كل شيء: سفينة نوح وهي تبنى وطوفان لم ينج منه أحد. يوسف ملقى في البئر وسيارة يمرون هناك. عيسى يحيي الموتى، ويهود تائهون في الأرض. فيل يقود جيشاً نحو الكعبة، كتب تغطي نهراً، كتب تحترق، فتى يقبل فتاة أسفل السلم، فيما آخر يجلس معها في صالة الزفاف. أم تموت لحظة ولادتها.

يجرب أن يرفع قدمه من فوق البنزين، لكي يستريح قليلا، لكن السيارة تواصل سيرها أيضاً، بعد أن اختفى كل شيء من حوله، الناس والحيوانات والطيور والمباني. الآن تختفي الجبال، يحيطه البياض. البياض التام، لدرجة أنه لم يعد يعرف هل هو حي أم ميت؟ هل أجاب على الأسئلة التي طرحها أم سيموت وسؤاله

على شفتيه؟

الملاك تهدلت ملامحه تماماً، وكأنه صار في المائة الثانية من عمره، «تأبط شراً» احتبس صوته، وتساقط ريشه. مد بيبو يده وفتح القفص، ثم فتحة السيارة العلوية، وأشار لتأبط شراً إلى السماء:

ـ وداعاً يا صديقي.

لم يجب الببغاء، لكنه ضرب بما تبقى من جناحيه الهواء فهب نسيم خفيف على وجه بيبو، فابتسم لتأبط شراً الذي انطلق في الفضاء.

تسير السيارة بسرعة شديدة كأنها تهرب من شيء ما. طرق مغلقة أمامه تتفتح، طرق مظلمة يشقها ضوء السيارة، شيئاً فشيئاً تبهت كل الأشياء، يشعر بشعره يشيب بسرعة، يتساقط، تختفي الملابس التي يرتديها من على جسده، لا يشعر بعريه، يشعر بملائكيته، بأنه تحول إلى مجرد روح تقود سيارة.

يذوب الملاك تدريجياً، لا يتبقى منه سوى ما يشبه الرماد الأبيض على المقعد الخلفي، يتناثر في الهواء، تختفي الأشياء من حوله، الأبواب، المقود، دواسة الفرامل، دواسة الوقود، بينما يواصل من تبقى من السيارة طريقه. تختفي ميرفت ونتف قلب سنووايت وعم ممدوح وعلاء الدين وإتش وهدهد وهرقل وأم كلثوم وأفلاطون، والفتاة ذات الضفيرة الواحدة ومحمد أبو زيد. تحلق القطة «حميدة» في الهواء ثم تختفي، تبهت ذاكرته، يختفي الهاتف، الكمبيوتر، الحقيبة، مقاعد السيارة، لا يتبقى إلا

t.me/qurssan

المقعد الذي يجلس عليه. يطير سقف السيارة، فيرى السماء زرقاء تماماً، وسحابات بيضاء هنا وهناك. عشرات الطائرات الورقية التي أطلقها صغيرا تحلق في كل مكان، يتطاير ريش تأبط شراً في الهواء، فيضرب الببغاء الهواء بجناحيه بقوة، ويبتعد أكثر في الفضاء.

يعود قلب بيبو إلى النبض بقوة، ثم يهدأ تماماً، لا يشعر بأعضائه، الشمس فوق رأسه تماماً، لكنه لا يشعر بسخونتها، يشعر أنها مجرد مصباح يضيء السماء، لو مد أحد يده إلى الحائط لأطفأه. تختفي الأشياء من حوله، تختفي السيارة، تختفي السحب، فيما يواصل صعوده على المقعد، يفك حزام الأمان، ويترك جسده يصعد لأعلى، يصعد أكثر، فأكثر. عيونه مفتوحة بارتياح، على شفتيه ابتسامة، في ذهنه تتردد جملة وحيدة، ربما سمعها في فيلم، أو قرأها في كتاب، أو قالتها أمه، أو سمعها من عابر في محطة قطار، أو تمتم بها «تأبط شراً»:

ـ حافظ على قلبك بعزيمة شاعر.. ثم اكتب رواية.

٩ مايو ٢٠١٢ ـ القاهرة

٩ مايو ٢٠١٧ ـ أبوظبي

Shutdown

المراجع

ـ ثقب في الهواء بطول قامتي، شعر، هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠٣

ـ نعناعة مريم، شعر للأطفال، كتاب قطر الندى، ٢٠٠٥

ـ قوم جلوس حولهم ماء، شعر، دار شرقيات، 2006

ـ مديح الغابة، شعر، هيئة الكتاب ، 2007

ـ طاعون يضع ساقا فوق الأخرى وينظر للسماء، دار شرقيات ، 2009

ـ أثر النبي ، رواية، دار شرقيات، 2010

ـ مدهامتان ، شعر، دار شرقيات، 2011

ـ مقدمة في الغياب، شعر، دار شرقيات، 2014

ـ قصيدة الخراب، مختارات شعرية بالفرنسية، دار المنار، فرنسا، 2014

ـ سوداء وجميلة، شعر، دار شرقيات، 2015

ـ الأرنب خارج القبعة، مقالات، دار هنداوي، 2016

t.me/qurssan